٣

روضة البهار

فى ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار

أقول معتمدا على ذى الطول، الذى بيده القوة والحول:

أردنا أنْ نذكر فى هذه الترجمة مشاهير شيوخ القاضى الإمام أبى الفضل عياض رحمه الله، وقد قدمنا فى الترجمة قبل هذه أسماء بعضهم على سبيل الإجمال، حيث جر الكلام إليها، وهذا هو محلها، وقد تكفل رحمه الله بذكرهم فى كتابه الذى أسماه بالغنية، وقد ذكر فيها نحو المائة.

وقال ابنه رحمه الله: انتهى عدد أشياخه الذين ذكرهم فى فَهْرَسَتِه، ممن سمعه أو أجازه، واليسير منهم لقيه وجالسه ولم يسمع منه إلى مئة شيخ. انتهى.

وقد ذكر كثيرا من أحوالهم فى الغنية، ولم تحضرنى نسخة منها الآن بفاس، لأنى تركت التى عندى بتلمسان، ولم أجد منها بفاس نسخة، وكل ما أذكره هنا من التعريف ببعض أشياخه فهو منقول من غيرها، وقد يتفق لفظه مع ما فيها.

شيوخ عياض

فمن جملة أشياخه رحمه الله تعالى:

القاضى أبو الوليد محـمّد بن أحمد بن أحمد بن أحمـد بن محمّد بن أحمد بن عبد الله بن رشد الفقيه ذكره ابن بشكوال[1]، فقال: قاضى الجماعة بقرطبة، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بها، يكنى أبا الوليد.

روى عن أبى جعفـر بن زَرْق الفقيه، وتفقه مـعه، وعن أبى مروان بن سراج، وأبى عبد الله محمّد بن خيـرة، وأبى عبد الله محمّد بن فرج، وأبى على الغسـانى، وأجاز له أبو العـباس العذرى مـا رواه؛ وكان فـقيهًـا عالمًا، حافظًا للفقه، مقدمًا فيه على جـميع أهل عصره، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك وأصـحابه، بصـيرًا بأقـوالهم، واتفاقـهم واختـلافهم، نافـذًا فى علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة فى العـلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدى الصالح.

سمعت الفـقيه أبا مروان عبـد الملك بن مسيرة يقول: شـاهدت شيخنا القاضى أبا الوليد يصـوم يوم الجمعة دائمًا، فى الحضر والسـفر. ومن تواليفه كتـاب «المقدمات لأوائل كـتب المدونة»، و«كتاب البـيان والتحـصيل، لما فى المستخرجة من التـوجيه والتعليل»، و«اختصار المبسـوطة»، و«اختصار مشكل الآثار» للطحاوى، إلى غير ذلك من تواليفه. سـمعنا عليه بعضها، وأجاز لنا سائرها، وتقلد القـضاء بقرطبـة وسار فيه بأحـسن سيرة، وأقـوم طريقة، ثم استعفـى عنه فأعفى، ونشر كتبـه وتواليفه، ومسائله وتصانيـفه، وكان الناس يلجئون إليه، ويعولون فى مهمـاتهم عليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء،

(١) ابن بشكوال: الصلة ص ٥٤٦، والغنية ص ٢٩.

كثير النفع لخاصته وأصحابه جميل العشرة لهم، حافظًا لعهودهم، كثير البر بهم، وتوفى عفا الله عنه ليلة الأحد، ودفن عشى يوم الأحد الحادى عشر من ذى القعدة، سنة عشرين وخمس مئة، ودفن بمقبرة العباس، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، وشهده جمع عظيم من الناس، وكان الثناء عليه حسنًا جميلاً. ومولده فى شوال سنة خمسين وأربع مئة.

وقد كان أيام حياته توجه إلى المغرب، إثر الكائنة التى كانت بين المسلمين والنصارى، بالموضع المعروف بالرينسول[1]، وذلك فى منتصف شهر صفر عام عشرين وخمس مئة، فاستخار القاضى أبو الوليد فى النهوض إلى المغرب، مبينًا لأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، ما الجزيرة عليه، فوصل إليه فلقيه أكرم لقاء، وبقى عنده أبر بقاء، حتى استوعب فى مجالس عديدة، إيراد ما أزعجه إليه، وتبين ما أوفده عليه، فاعتقد ما قرره لديه؛ وانفصل عنه، وعاد إلى قرطبة، فوصلها آخر جمادى الأولى من السنة المذكورة، وعلى اثر ذلك أصابته العلة التى أضجعته، إلى أنْ أفضت به قضاء نحبه، ولقاء المرتقب من محتوم لقاء ربه، وتبارى الأدباء والشعراء فى تأبينه؛ وحق لهم ذلك، رضى الله عنه وأرضاه.

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض:

الشيخ أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى القرطبى، الشهير بابن الحاج[2]، قاضى الجماعة بقرطبة. روى عن أبى جعفر أحمد بن زَرْق الفقيه، وتفقه عنده، وقيد الغريب واللغة والأدب عن أبى مروان عبد الملك بن سراج، وسمع عن أبى عبد الله محمّد بن فرج الفقيه،

(١) مكان يقع جنوبى غرناطة

(٢) ابن بشكوال: الصلة ص ٥٥٠، وفهرست شيوخ القاضى عياض المسمى بالغنية ص ٢٥.

وعن أبى على الغسانى وغيرهم. وكان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، معدودًا فى المحدثين والأدباء، بصيرًا بالفتيا، رأسًا فى الشورى، وكانت الفتيا فى وقته تدور عليه، لمعرفته وثقته وديانته، وكان معتنيًا بالحديث والآثار، جامعًا لها، مقيدًا لما أشكل من معانيها، ضابطًا لأسماء رجالها ورواتها، ذاكرًا للغريب والأنساب، واللغة والإعراب، وعالمًا بمعانى الأشعار، والسير والأخبار. قال ابن بشكوال: قيد العلم عمره كله،و عنى به عناية كاملة، ما أعلم أحدًا فى وقته عنى كعنايته، قرأت عليه وسمعت، وأجازنى بخطه؛ وكان له مجلس بالجامع بقرطبة، يُسْمِعُ الناس فيه، وتقلد القضاء بقرطبة مرتين، وكان فى ذاته لينًا صابرًا، حليمًا متواضعًا، لم يحفظ له جور فى قضية، ولا ميل بهوى، ولا إصغاء إلى عناية، وكان كثير الخضوع والذكر لله تعالى، ولم يزل آخر عمره يتولى القضاء بقرطبة، إلى أنْ قتل ظلمًا بالمسجد الجامع بقرطبة، يوم الجمعة وهو ساجد، لأربع بقين من صفر، من سنة تسع وعشرين وخمس مئة، ومولده فى صفر سنة ثمان مثال خمسين وأربع مئة. وكتابه فى نوازل الأحكام، المتداول لهذا العهد بأيدى الناس: من الدلائل على تقدمه فى المعارف وبراعته. تغمدنا الله وإياه برحمته.

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله:

القاضى الشهير الحافظ الإمام أبو بكر محمّد بن عبد الله بن محمّد بن عبد الله بن أحمد بن العربى المعافرى الإشبيلى[1]، رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد، مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربع مئة، فدخل الشام، ولقى بها أبا بكر محمّد بن الوليد الطرطوشى، وتفقه عنده، ورحل إلى الحجاز فى موسم سنة تسع وثمانين، ودخل بغداد مرتين، وصحب أبا

(١) ابن بشكوال: الصلة ص ٥٥٨، والغنية ص ٣٩، والمرقبة العليا ص ١٠٥.

بكر الشاشى، وأبا حامد الطوسى الغزالى، وغيرهما من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم، ثم صدر عن بغداد، ولقى بمصر والإسكندرية جماعة، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير، لم يدخله به أحد قبله، ممن كان له رحلة إلى المشرق، ولذا نقل عنه أنَّه قال: كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضى أبو الوليد الباجى، أو كلاما هذا معناه. أو قال: لم يرحل غيرى وغير الباجى، وأما غيرنا فقد تعب، أو نحو هذا، مما لم تحضرنى عباراته الآن.

وكان من أهل التفنن فى العلوم، متقدما فى المعارف كلها، متكلمًا فى أنواعها، حريصًا على نشرها. واستقضى بمدينة إشبيلية، فقام بما قلد أحمد قيام، وكان من أهل الصرامة فى الحق، والشدة والقوة على الظالمين، والرفق بالمساكين، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه.

قال المحدث أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال: قرأت عليه [وسمعت] بإشبيلية، وسألته عن مولده، فقال لى: ولدت ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربع مائة؛ وتوفى رحمه الله بالعدوة، ودفن بمدينة فاس فى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة[1]. انتهى.

وقال ابن بشكوال أيضًا فى حقه:

هو الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها[2]. انتهى.

ومن تكملة[3] المحدث أبى عبد الله محمّد بن عبد الله بن الأبار، عن أبى عبد الله بن مجاهد الإشبيلى الزاهد العابد: أنَّه لازم القاضى أبا بكر بن

(١) ابن بشكوال، ص ٥٥٩ وما بين حاصرتين منه.

(٢) الصلة لابن بشكوال، ص ٥٥٨.

(٣) نقله صاحب المرقبة العليا ص ١٠٦.

العربى نحوًا من ثلاثة أشهر، ثم تخلف عنه، فقيل له فى ذلك، فقال كان يدرس وبغلته عند الباب، ينتظر الركوب إلى السلطان. انتهى.

وذكره الأستاذ أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير فى صلته[1]، وقال فيه:

رحل مع أبيه أبى محمّد عند انقراض الدولة العبادية إلى الحج، سنة خمس وثمانين وأربع مئة، وسنه إذ ذاك نحو سبعة عشر عامًا، فلقى شيوخ مصر؛ وعدد أناسًا ثم قال: وقيد الحديث، وضبط ما روى، واتسع فى الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام، على أئمة هذا الشأن، وعاد إلى بغداد بعد دخولها، وانصرف إلى الأندلس، فأقام بالإسكندرية، فمات أبوه بها أوّل سنة ثلاث وتسعين. ثم انصرف إلى الأندلس، فسكن بلده إشبيلية، وشوور فيه، وسمع ودرس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، وصنف فى غير فن تصانيف مليحة، حسنة مقيدة، وولى القضاء مدة، أولها فى رجب من سنة ثمان وعشرين، فنفع الله به، لصرامته ونفوذ أحكامه، والتزم الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، حتى أوذى فى ذلك، بذهاب كتبه وماله، فأحسن الصبر على ذلك كله، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه، وكان فصيحًاحافظًا، أديبًا شاعرًا، كثير الملح، مليح المجلس.

ثم قال: قال القاضى أبو الفضل عياض بن موسى - وقد وصفه بما ذكرته - ثم قال[2]: ولكثرة حديثه وأخباره، وغريب حكاياته ورواياته، أكثر الناس فيه الكلام، وطعنوا فى حديثه، وتوفى منصرفه من مراكش، من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة، بعد دخول مدينة إشبيلية،

(١) نقله صاحب المرقبة العليا ص ١٠٦.

(٢) نقله صاحب المرقبة العليا ص ١٠٦.

فحبسوا بمراكش نحو عام، ثم سرحوا، فأدركته منيته بطريقه، على مقربة من فاس بمرحلة، وحمل ميتًا إلى مدينة فاس، فدفن بها، بباب الجيسة.

قال: وروى عنه الجم الغفير. فمن جملة من روى عنه من علماء المائة الخامسة، القاضى أبو الفضل عياض بن موسى، وأبو جعفر بن الباذش، وطائفة. انتهى.

قال القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى فى كتاب «المرقبة العليا، فيمن يستحق القضاء والفتيا»[1] بعد أنْ ذكر ما قدمناه، ما نصه: والصحيح فى القاضى أبى بكر أنَّه إنما دفن فى خارج باب المحروق من فاس، وما وقع من دفنه بباب الجيسة، وهم من ابن الزبير وغلط، وقد زرناه وشاهدنا قبره بحيث ذكرناه.

أرضاه الله وغفر لنا وله. انتهى.

قلت: وقد سبق ابن الزبير إلى ذلك القاضى أبو الفضل عياض فى الغنية، فإنه قال: دفن جارج باب الجيسة. واعتذر عنه بعض الأكابر، بأن باب المحروق لم يكن إذ ذاك فتح، لأنه من بناء أمير المؤمنين الناصر بن أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن أمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن على، ولا شك أنَّ ذلك متأخر عن زمان عياض قطعًا، ويبقى الإشكال فى كلام ابن الزبير، لتأخر زمانه عن ذلك.

(١) المرقبة العليا ص ١٠٧.

استطراد وتحقيق

بين الشيخين: ابن غازى والوانشريشى

وبعدما كتبت هذا هنا، وقفت على تأليف لطيف صغير الجرم، كثير العلم للشيخ الإمام العالم أبى عبد الله محمّد بن غازى رحمه الله تعالى ألم فى آخره بالمسألة المذكورة، فرأيت أنْ أورده بطوله، لما اشتمل عليه من الفوائد، وإنْ كانت أجنبية عما نحن فيه، ولكن لا يخلو من فوائد جمة، وختمته بهذا الغرض الذى ذكرناه، وخاطب به الشيخ الحافظ الإمام سيدى أحمد بن يحيى الوانشريشى المولد، التلمسانى المنشأ والقراءة، الفاسى القبر والدار آخر عمره، بل أوسط عمره، وسماه: «بالإشارات الحسان، المرفوعة إلى حبر فاس وتلمسان» يعنى بحبر فاس وتلمسان: الشيخ الوانشريشى المذكور؛ وقد كتب بطرره الشيخ الوانشريشى المذكور زوائد، هأنا أذكرها فى محلها، تتميمًا للغرض، ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمّد نبيه وعبده.

إلى السيد الفقيه، العلم، المحقق، المدرس، المفتى الصدر، الحجة، الكبير، الخطير، الأحظى، الملحوظ، الأحفل الأكمل، أبى العباس سيدى أحمد بن سيدى يحيى الوانشريشى، حفظ الله سبحانه وتعالى كماله، وبلغه فى الدارين آماله، من مُحِبِّه طبعًا وشرعًا، أصلاً وفرعًا، وترًا وشفعًا، إفرادًا

وجمعًا، محمّد بن أحمد بن غازى، سمح الله سبحانه وتعالى له، مسلمًا عليكم أكمل السلام، مخصصًا لكم بمحض البر والإكرام.

سيدى متى صار النهر يستمد من الساقية؟ وكيف السيح يفتقر إلى السانية؟

* فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَل *

* ليس التكحل فى العينين كالكَحَل *

كتبت، كتب الله لك السعادة، وبلغك منها الحسنى والزيادة، تشارك محبكم فى أمر سعيد بردًا بإسكات عمر بن عبد العزيز، أو إخراجه من المسجد، هل كان ذلك فى خلافته، أو فى إمرته بالمدينة؟ ومن برد هذا، ومن عرف به؟ ومن قال بإسلام أبى طالب غير المسعودى؟ ومن أبو العباس العشاب، الذى نقل عنه ابن عرفة فى فصل الاستثناء من كتاب الطلاق؟ ومن الآبلى المصرى؟ وهل ألف أحد فى التعريف برجال أهل السنة والمعتزلة؟

فتوزع فكر محبكم فى إيرادكم شذر مذر، ولم يكن بد من إسعاف ردكم، ولو بالتشدق والهذر.

١ - أما قضية سعيد بن المسيِّب بن حَزْن مع عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، المذكورة فى سماع القرينين من صلاة العتبية، فليس عند محبكم فى طرده، إلاّ ما فسر به القاضى أبو الوليد بن رشد: أنَّه من جواره، لا من المسجد جملة؛ فإن وقفتم على تفسير أحد له بالإخراج من المسجد، فلكم الفضل فى إفادتنا به، ثم لا مرية أن سعيدًا مدنى، وأنَّ عمر كان عاملا على المدينة، إلى أنْ عزل عنها

سنة ثلاث وتسعين، حسبما هو فى ترجمة مالك من المدارك، عن مصعب بن عبد الله.

وفى جامع الموطأ لمالك، أنه بلغه أنَّ عمر بن عبد العزيز حين خرج من المدينة، التفت إليها فبكى، ثم قال: يا مزاحم، أتخشى أنْ نكون ممن نَفَتِ المدينة؟

قال أبو عمر: ذكر أهل السير أنَّ خروج عمر مع مزاحم مولاه من المدينة، كان فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، وذلك أن الحجاج كتب إلى الوليد: أنَّ عمر بن عبد الله العزيز بالمدينة كهف لأهل النفاق، وأهل البغضاء والعداوة لأمير المؤمنين. فجاوبه الوليد: إنى أعزله. فعزله، وولى عثمان بن حيان المرى؛ وذلك فى شهر رمضان المذكور. فلما صار عمر بالسويداء قال لمزاحم: يا مزاحم أتخاف أنْ نكون ممن نفت المدينة؟

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت ثلاثة مجتمعين خيرًا من عمر بن عبد العزيز، وابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم. انتهى.

قلت: مات ابنه ومولاه المذكوران قبله مطعونين ومات هو مسموما. ذكر ذلك أبو نعيم الحافظ فى «حلية الأولياء». وكان ميمون بن مهران كاتبه رضى الله سبحانه وتعالى عنهم.

وأفضت الخلافة إلى عمر باستخلاف سليمان النهم إياه، فاستقر بالشام دار خلافة قومه بنى أمية إلى أنْ قبض ودفن بدير سمعان.

قال ابن الخطيب فى شرح رقم الحلل: من عمل حمص فى أخريات رجب سنة إحدى ومائة. وقبره مشهور يغشاه الناس. انتهى.

وقال الشاعر يرثيه رضى الله عنه:

أقـول لمّا نعى الناعـون لى عـمـرا لا يبـــعـــدن قـوام الحـق والدين

قد غيب الرامســون اليوم إذ رمسوا بدير ســمــعــان قــسطاس الموازين

وفى رواية «جربان الموازين». أنشدهمـا أبو نعيم فى الحلية. ورأيت فى نسخة منها جريان بالياء آخر الحروف وأظنه تصـحيفا لأن مصدر جريان جرى جريان بفـتح الراء والوزن يأباه مع ما فيـه من القلق من جهـة المعنى وصوابه والله تعالى أعلم جربان بضم الجيم وإسكان الراء وبالباء ثانية الحروف، وأظن أنَّ منه اللفظ الذى فى صـرف العُتْـبِيَّـة فيـمن له على رجل دينار فـأعطاه به نصفين وازنين قال: لا خير فيه إلاّ أنْ يكون للدينار جربان: معيار عنده. قال القاضى أبو الوليد بن رشد: جُـرْبان أى وزن معلوم. وفى صحاح الجوهرى: الجريب من الطعام والأرض: مقدار معلوم، والجمع أجربة وجربان. انتهى.

وبين التفسيـرين فرق، ولكنهما حول حقيـقة واحدة يدندنان. وإنْ كان عند سيدنا فى تحقيق هذا اللفظ غير هذا فعسى أنْ يفيدنا به.

فإذا تقرر سكناه بالمدينة أيام العمالة، ثم بالشام أيام الخلافة، فالأظهر أن طرد سعيد إياه كان أيام العـمالة، حيث كان ثاويا بالمدينة، لقوله فى الرواية: كان عـمر بن عبد الـعزيز يخرج من الليل، أراه فى آخـره، وكان ظاهره فى المثابرة ومظنتها الإقامة، لولا أنَّ شيخ الحقـيقة وإمام الطريقة القاضى أبا الوليد بن رشـد قال: لم يهـبه لمكانه من الخـلافة، لجـزالته وقـوته فى الحق، وقلة مبالاته بالأئمة. فـاقتضى كلامه أنَّ ذلك كان وهو خليـفة لا وهو عامل. فإن صح ذلك، فيـحتمل أنْ يكون جاء ليـزور المدينة على ساكنها أفـضل الصلاة

والسلام فى أيام خلافته، وأقام فيها للعبادة. وربما يتعين هذا، بأن النافلة فى البيوت أفضل لغير الغرباء، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقد ذكر قول ابن رشد هذا محبكم ما فى صحيح البخارى، عن سعيد ابن المسيب، أنَّه قال: جاء جدى حَزْنٌ إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما اسمك؟ قال: حزن. قال أنت سهل. فقال: ما كنت أغير اسما سمانى به أبواى. قال سعيد: فما زالت الحزونة فينا بعد. انتهى.

ولصلابته فى الحق، وشدته على الدين، امتحنه عبد الملك بن مروان وضربه بالسياط، وألبسه المسوح، وتبانا من الشعر، ونهى عن الجلوس إليه. وذلك أيام استعماله هشام بن إسماعيل على المدينة، وهو صاحب المد الهشامى لا الدينار الهاشمى، خلافًا لمن نسبه له، وإلاّ قيل الهشامى أيضًا وتغيرات النسب مقصورة على السماع، وبالله تعالى التوفيق.

قال عبيد الله أحمد بن محمّد المقرى لطف الله به، وجدت بخط الإمام سيدى أحمد الوانشريشى فى طرة: قول الإمام ابن غازى: «ولصلاته فى الحق. . . الخ» ما نصه:

قلت: ذكر أبو العرب فى كتاب المحن، أنَّه لّما أراد عبد الملك بن مروان أنْ يكتب العهد لابنه الوليد، قيل له لا يتم لك هذا الأمر إلاّ بابن المسيب، فكتب له، فكتب إليه أنْ يبايع، فرد إليه: إنَّ رسول الله ﷺ نهانا أنْ نبايع لخليفتين، فإن أردتها لابنك، فاخلع نفسك، وإلاّ فلا. فكتب عبد الملك إلى عامل المدينة، هشام بن إسماعيل المخزومى: إنْ لم يبايع فأضربه مئة سوط، فضربه مئة، وحلق رأسه ولحيته، وكساه تبانًا من شعر، ونادى عليه، وطيف به إلى الليل، فأغلقت الدور، وكثر البكاء والتحسر، وما سمع يومئذ بالمدينة

إلاّ نائحة أو هاتف، لما انتهك من حـرمته. وكان أيضًا قـبل ذلك ضربه جابر ابن الأسود على البيعة لابن الزبير. انتهى.

ابن الحذاء: وكان جابر بن الأسـود والى المدينة لابن الزبير، فدعاه إلى البيعة لابن الزبيـر، فضربه ستين سوطًا. ودعاه هشام بن إسـماعيل أيضًا إلى البيعة للوليد وسليمان بالعهد، فلم يفعل؛ فضربه ستين سوطًا، وطاف به فى المدينة، فى تبان من شعر. انتهى.

قال بعض الشيوخ: إنْ كان استناد ابن المسيب فى إبايته من البيعة للوليد حديث: «إذا بويع لخليـفتين فاقـتلوا الآخر منهمـا»، فإنما الحديث فى البيـعة للخليفتين، يفرق الثانى جماعة الأول، ويشق العصا. وإنْ كان النهى فى غير هذا الحديث، فـهو أعلم بما استند إليـه، قال: وأما امـتناعه من البيـعة لابن الزبير، فإنَّ البيعة حينئذ كـانت انعقدت لبنى امية فى الشام، وكان مذهب ابن المسيب كمـذهب الأكثر، فى منع القيـام على من انعقدت له البيـعة ثم ظهر فسـقه. وانظر هذا مع قول مالك: ابن الـزبير أحق بها من مروان وابنه عـبد الملك.

انتهى ما ألفيته على هذا المحل بخط الشيخ العلامة الوانشريشى.

ووجدت أيضًا بخطه ما نصه:

تنبيهات

الأول – ولد أبو مـحمّـد سـعـيد بن المسـيب بن حـزن بن أبى وهب المخزومى، لسنتـين مضتا من خـلافة عمـر بن الخطاب. وتوفى بالمدينة، قال يحيى بن سـعيـد: سنة إحدى أو اثنتين وتسـعين؛ وقـال الواقدى: سنة أربع

وتسعين؛ وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء، لكثرة من مات منهم؛ وقال المدائنى ويحيى بن معين: سنة خمس ومائة.

الثانى - قال غير واحد: عمال عبد الملك بن مروان: الحجاج بالعراق، وأخوه محمّد فى اليمن، والمهلب بخراسان، وهشام بن إسماعيل بالمدينة، وابنه عبد الله بمصر، وموسى بن نصير بالمغرب، ومحمّد بن فلان بالجزيرة.

قال ابن خلكان: وكل واحد من هؤلاء ظلوم غشوم.

الثالث - هشام بن إسماعيل المذكور هنا هو ثالث آباء أبى هشام، محمّد بن مسلمة الفقيه المدنى، صاحب مالك. قال الشيرازى: وكان مالك إذا دخل على الرشيد دخل بين رجلين من بنى مخزوم: المغيرة عن يمينه وابن مسلمة عن يساره.

وهشام هذا هو الذى نسب إليه مُدّ هشام المذكور فى الوضوء والظهار، والذى يذكر عنه ذكر عهدة الرقيق فى خطبته، وانظر شدة إنكار ابن العربى اعتبار مُدِّه فى آية الظهار، من أحكامه تطالع. انتهى ما ألفيت بخط الوانشريش.

وقد سنح لى أنْ ما ذكره الشيخ ابن غازى عن ابن رشد من أنَّ طرد سعيد بن المسيب عمر بن عبد العزيز إنما كان فى خلافته، لا يتم إلاّ على القول بأن وفاته - أعنى سعيدا - كانت على رأس المائة أو بعدها، وأما على قول الأكثر إنَّه بعد التسعين بسنة أو سنتين أو أربع فلا يصح قطعا فتدبره.

ومن العجائب إغفال الشيخين: ابن غازى والوانشريشى له. وإلى الله منتهى العلم.

ولنرجع إلى تكميل كلام الشيخ ابن غـازى فى التأليف المذكور ونصه: وأما برد فليس عند معظم قـدركم أكثر من أنَّه مولى سعيـد، كما أنَّ زيد بن حـارثة وسفـينة وأبا رافع وشقـران: مولى رسـول الله ﷺ، وبلال بن رباح مولى أبى بـكر، ويرفأ مولى عـمر بن الخطاب، وحـمران مـولى عثـمان بن عفـان، ونافع مولى ابن عمـر، وكريب وعكرمة البـربرى موليا ابن عـباس، ومزاحم مولى عـمر بن عبد العزيز رضى الله تعـالى عنهم. وقد صرح بذلك الحافظ أبو نعـيم قائلا فى ترجمـة سعيد من الحليـة عن برد مولى سعـيد بن المسيب: ما نوى للصلاة منذ أربعين سنة إلاّ وسعيد فى المسجد. انتهى.

ولم أجد عند أبى جعـفر العقيلى ولا عند أبى يحـيى الباجى، ولا عند ابن أبى أحد عشـر الذى جمع بينهما من اسـمه برد، وذلك والله أعلم لأحد وجهين: إما أنَّه لم يتكلم فيه أحد بجرح، أو لكونه لا رواية له. ولا يعترض هذا بوقوعه فى سند الحلية المتقدم إذ ليس بمرفوع. وقد ذكروا بعض من اسمه بريد وبريدة لوقوعـهما فى أسانيد المرفـوع وتكلم بعض الأئمة فيهـما ببعض الجرح، وبالله العصمة، لا رب غيره.

وأبو عبد الله بن أبى أحـد عشر المذكور: هو من أهل أَلْمَـرِيَّةَ وقد عده صاحب بغية الراغب فى أشياخه وعرف به تعريف كافيا.

٢ - وأما أبو طالب فليس عند معظِّم منصبكم فى شـأن غير ما تضمنته الصحـاح من قوله آخر كـلامه عند الموت: «على ملة عبـد المطلب» وحديث الضحضاح الذى يغلى منه دماغه وقـوله: «لولا أنْ تعيرنى النساء على المغازل لأقررت بها عـينك» وما نزل فيه من قـوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)**﴾

[التوبة]، وقوله سبحانه: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ...** ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]، وقوله جل وعلى فى أحد التأويلين: ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ...** ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنعام]. وأنشد فى فى تفسيرها الثعلبى والزمخشرى له يخاطب رسول الله ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر بذاك وقر منه عيونا

ودعوتنى وزعمت أنك ناصح ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت دينا لا محال أنَّه ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذارى سبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وقد فسر الطيبى فى فتوح الغيب غريبها.

وبحسب ما تقرر من حاله أورد علماؤنا، القاضى أو الفضل عياض وغيره السؤال على قوله عليه السلام: «لعله تنفعه شفاعتى» مع قوله تعالى: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾** ﴾ [المدثر]، وانفصلوا عنه بما فى كريم علم سيدنا.

وأما عبد المطلب الذى قلده، من أهل الفترة، وللقاضى أبى بكر بن العربى فى كتاب الناسخ والمنسوخ كلام مليح على أهل الفترة عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾** ﴾ [البقرة].

وقد حدث محبكم غيرُ واحد، عن الشيخ سيدى أبى محمّد عبد الله العبدوسى، أنَّه كان يلهج بحديث وقف عليه فى بعض الكتب غير واحد عن

الشيخ سيدى أبى محمّد أنَّ الله عز وجل بعث لرسول الله ﷺ أبويه حتى آمنا به ﷺ إكراما لنبيه عليه السلام، وكان العبدوسى يستحسنه ويسر به كثيرا.

وقد أنشدنى بعض أصحابنا للنميرى السلوى:

وإنَّ ابن طلاع روى أنَّ أحـــمـــدا رأى أبويـه بعـــد ذوق المنيـــة

فـأحـيـاهمـا رب الـعـبـاد فـآمنا به ثم عـــادا مكرمـــين لـتـــربة

وقدره عليه السلام أوسع من هذا كله، ﷺ وشرف وكرم وعظم:

لو ناســبت قــدره آياته عظمــا أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

وأما قول المسعودى فى أبى طالب، فما استفاده محبكم إلاّ من كتبكم، أبقى الله لنا بركاتكم.

قال جامع هذا الموضوع عبيد الله أحمد بن محمّد المقرى وفقه الله:

وجـدت على هذا المحل من كـلام الشـيخ ابن غـازى فى الطرة، بخط الإمام سيدى أحمد الوانشريشى رحمه الله ما نصه:

قال القاضى أبو عـبد الله محمّد بن خلفة الوشـتاتى المعروف بالأبى فى إكمال الإكمال ما نصه:

السهيلى: ورأيت فى بعض كتب المسـعودى: وقيل إنَّه مات مؤمنا. ولا يصح، لم تقدم من الآى والأحاديث.

ولا يحتج لذلك بما فـى السير من قـول العباس: «والله لقـد قال أخى الكلمـة التى أمرته بها يا رسـول» لأن النبى ﷺ قال: لم أسـمعـها. ولو أنَّ العباس شهـد بذلك بعد إسلامه قبلت شهادته، لأن العـدل إذا قال: سمعت

وقال الأعـدل: لم أسمع أخـذ بقول من أثبت، لأن عـدم السمـاع قد يكون لسبب. فـإن قلت: قد ذكـرت أنَّ السِّيـر تدل على أنَّه كان مـصدقا بـقلبه، وقدمت الخـلاف فى صحتـه إيمان من صـدق بقلبه ولم ينطق بلسـانه، فهل يدخل فى إيمانه ذلك الخلاف؟ قلت: لا يدخل لأنه صـرح بالنقيض فى قوله هو: «على ملة عبد المطلب».

انتهى ما ألفيت بخط الوانشريشى.

ولنرجع إلى تتميم كلام ابن غازى.

٣ - قال رحمـه الله: وأما أبو العباس العشـاب الذى عرف بابن طلحة فلا يعرف مجل سيادتكم إلاّ من كلام ابن عرفة، وكأنه مؤرخ.

قال أحـمد المقرى وفـقه الله: ألفيت على طرة هذا المحل بخط سـيدى أحمد الوانشريشى رحمه الله ما نصه:

قلت: أبو العباس العشاب المعـروف بابن طلحة فى كتاب الطلاق، وقد وهم فيه وعرف فى الترجمة مواقع الشهادات بابن الخبازى النحوى: هو أحمد ابن محمّد بن إبراهيم المرادى المعروف بالعشاب. قال ابن مرزوق الخطيب فى فهرسة شيوخه: هو من أعظم من لقيت بثغر الإسكندرية، وأكثرهم تحصيلا، قرأت عليه بعض موطأ الإمام، وكتاب الشـفا فى التعريف بحقوق المصطفى، وكتاب التـيسير، وكتاب التـفسير من تأليفـه، جمع فيه بين تفسـير ابن عطية وتفسير الزمخـشرى، وقرأت عليه أوائل الكتب الستة بأسانيـده فيها. ويحمل عن أعلام، منهم: أبو القاسـم بن البراء، والشيخ العارف أبو العبـاس أحمد بن عثمان بن أحمد بن عجلان القيسى الإشبيلى، وأبو عمر عثمان بن سفيان المعـروف بابن الشقى، وأبو مـحمّـد عبـد الله بن محمّـد بن أحمـد الواعظ

المعروف بابن الحجام، وأبو العباس بن الغمـاز، وعبد الحميد بن أبى البركات بن أبى الدنيا الصدفى، وأبو القاسم بن زيتون، وأبو على بن عبيل.

انتهى ما ألفيت فى هذا المحل بخط الشيخ سيدى أحمد الوانشريشى.

ولنرجع إلى تكميل كلام ابن غازى.

قـال رحمـه الله: نعم ابن طلحـة الذى عرف به: هـو شيخ مـحمـود الأعرج الزمخشرى، قرأ عليه كتاب سـيبويه بمكة، شرفها الله تعالى، سمعت ذلك من شيخنـا الاستاذ سيدى أبى عـبد الله الكبير بَرَّد الله تعـالى ضريحه، وقد عـرف صاحب الخريدة الزمـخشرى، وهو بخـزانة جامع الأندلس. وفى اعتقاد محبكم أنَّ ابن طلحة هذا النحوى، خلاف الفقيه صاحب المدخل، وأنَّ حظه من مـسألة الاستـثناء اللسـان دون الفقه. فـإن صح عند سيـدنا أنَّه هو فليفدنا به متطولا مأجورا مشكورا.

قال أحمد المقرى وفقه الله:

وجدت على طرة هذا المحل، بـخط سيدى أحـمد الوانشريشى رحـمه الله، ما نصه:

قلت: بل هو هو، وهو عبد الله بن طلحة بن محمّد عبد الله اليابرى، نزل إشـبيليـة أبو بكر وأبو محـمّد الأول أشـهرهمـا. روى عن جماعـة من الأعلام، نزل مكة شرفـها الله، وكان من أهل المعرفة بالفقـه وأصوله، ماهرا فى النحو، حافظـا للتفسير، قـائما عليه، ذاكرا للقصص المـتعلقة به، وذلك كان الغالب عليه وحلق به للعامة بإشبـيلية وغيرها، فكانت العامة تنثال على مجلسـه. وله مصنفـات، منها فى التـفسيـر كتـاب كبيـر، ومنها فى الفـقه وأصوله، وشـرح صدر رسالة الشيخ أبى مـحمّد، ومنهـا رَدٌّ عَلَى ابن حزم،

ومنها كتاب فى الفقه على مذهب مـالك، سماه سيف الإسلام، ومنها كتاب سمها المدخل إلى هذا المتاب، واستوطن مصر وقتا، ثم رحل إلى مكة فجاور فيهـا إلى أنْ توفى بها رحمه الله. وكان حـيا سنة ست عشرة وخـمس مئة، وكانت له مـعرفة تـامة بكتاب سـيبويه، وبسـببه ارتحل إلـيه الزمخـشرى من خوارزم لقراءته عليه. انتهى.

من كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك.

وذكر الشيخ أبو حيان فى باب القسم، أنَّ الزمخشرى رحل من خوارزم إلى مكة قبـل العشرين والخـمس مئـة، لقراءة كتـاب سيبـويه على رجل من أصـحـابنا ومن أهل الأندلس، يعـرف بأبى بكر بن طلحـة اليـابرى، وكـان مجاورا بها، عالما بالكتاب وغيره، وله تصانيف تقرأ عليه.

قلت: وتوفى فـخر خوارزم، أبـو القاسم محـمود سنة ثمـان وثلاثين وخمس مئة. وقطعت إحدى رجليه بسبب الثلج ولم يكن لريبة، والله اعلم.

انتهى ما وجد بخط الشيخ الوانشريشى على هذا المحل.

ولنرجع لكلام الإمام ابن غازى.

قال رحمـه الله: وثَمَّ ابن طلحة آخر، وهو مُخَاطِب أحـد بنى رغبوش بقصـيدة مديحيـة زائية الروى هائية الوصل حسـبما، ذكر ابن عـبد الملك فى تكلمته.

٤ - وأما الآبلى المصرى، فلا إخاله طرق اسـمه سمعى إلاّ من جهتكم فإنكم ذكرتمـوه لى فى غير هذا الوقت، وقد سـألت الفقيه المحقـق سيدى أبا عـبد الله القـورى[1] ليلة عن ضـبط باء الآبلـى الذكى الرحـال: أَبِالضَّم أو بالكسر، فكأنه ترجح فيه، ثم مال إلى الضم.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الغورى».

٥ - وأما رجال أهل السنة والمعتزلة، فلا علم لمحبكم هل صنف فيهم أم لا. نعم ربما سمعت أو رأيت بعض حكاياتهم فى المناظرة، كمناظرة الشافعى حفصا الفرد، بعد ما أنشده الشافعى يتوعده متمثلا:

ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشط الزاب أى فتى أكون

وذكرهم أبو نعيم فى الحلية، ومناظرة القاضى أبى بكر الطيب الباقلانى ابن المؤدب، إذ أخرج ابن المؤدب فُولا فرمى به، يعرض بالباقلانى، فأخرج الباقلانى سوطا فرمى به يعرض بابن المؤدب والحكاية ظريفة، ذكرها صاحب بغية الراغب فى ترجمة أبى عبد الله البغدادى.

قال أحمد المقرى وفقه الله: وجدت بخط الوانشريشى بطرة هذا المحل ما نصه:

أبو عبد الله هذا هو أبو بكر بن مجاهد، والله أعلم. انتهى.

ولنرجع إلى كرم ابن غازى..

قال رحمه الله ما نصه:

قال فَنَا خُسْرُو يوما لوزرائه: هؤلاء المثبتة أما لهم ناصر؟ فقال له القاضى، قاضى الجماعة بشر بن الحسين: ليس لهم ناصر، وإنما هم قوم رعاع، أتباع حشوية لا يعرفون النظر، وإنما هم أصحاب روايات وأخبار، والمعتزلة هم فرسان المناظر والجدل. فقال فنا خسرو: محال أنْ يكون مذهب قد طبق الأرض وليس له ناصر. فقال له بشر بن الحسين: سمعت أنَّ رجلين بالبصرة أحدهما شيخ والآخر شاب، فأما الشيخ فهو أبو بكر[1] محمّد بن مجاهد، وأما الشاب فهو أبو بكر بن الطيب. فأرسل إليهما الأمير فنا خسرو

(١) فى هامش المطبوع: «هذا وهم من الشيخ الوانشريشى، لأن أبا عبد الله بن مجاهد المتكلم غير أبى بكر بن مجاهد شيخ القراء، وسيأتى تفصيل لهذا الموضع بعد قليل.

خمسة آلاف درهم فضة طيبة. فقال أبو بكر بن مجاهد هؤلاء قوم ظلمة فسقة، لا يحل لى أنْ أطأ بسطهم، وليس غرضه منا إلاّ أنْ يقال إنَّ مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر، ولو كان ذلك لله تعالى، لكانت أموره جارية على السداد، وأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم. قال أبو بكر بن الطيب فقلت له هكذا قال عبد الله بن كلاب، والحارث بن أسد المحاسبى: إنَّ المأمون ظالم فسق ولا نحضر مجلسه، حتى سيق أحمد بن حنبل إلى طرسوس، ولما مات المأمون ضربه المعتصم بالسياط، ولو نصروه لكان أولى، لأن الرجل كان يدعى أنَّ أهل السنة ليست لهم حجة على قولهم، وإنما غرضهم رياسة العامة ودفن الحق، ولو مضوا إلى المعتصم وبينوا له أنَّ الذى يدعى عليه زور وبهتان لارتدع المعتصم، ولكن أسلموا أحمد بن حنبل لابن أبى دُاود القاضى فجرى على أحمد ما جرى وهم ينظرون. وكذلك أنت سلكت مسلكهم حتى يجرى على الفقهاء ما جرى على أحمد بن حنبل وهأنا خارج.

فقال له ابن مجاهد: إذا شرح الله صدرك لذلك فافعل.

قال القاضى أبو بكر بن الطيب: فخرجت إلى شيراز، فلما دخلت المدينة استقبلنى ابن خفيف، فى جماعة من الصوفية وأهل السنة، فلما جلسنا فى موضع كان ابن خفيف يدارس فيه أصحابه اللمع، للشيخ أبى الحسن الأشعرى، قال له القاضى أبو بكر: تماد على التدريس كما كنت، فقال له ابن خفيف: أصلحك الله! إنما أنا بمنزلة المتيمم عند عدم الماء، فإذا وجد الماء فلا حاجة إلى التيمم. فقال له القاضى: جزاك الله خيرا، وما أنت بمتيمم، بل لك وافر من هذا العلم وأنت على الحق والله ينصرك.

قال القاضى أبو بكر: قلت: متى الدخـول إلى فنا خسرو؟ فقالوا لى: يوم الجمعـة لا يحجب عنه صاحب طيلسـان. فدخلت والناس قد اجتـمعوا والملك قاعد على سرير ملكه، والناس صـفوف على يسار الملك، وفوق الكل قاضى القضاة بشر بن الحـسين، وكان يدخل مع الوزراء فى وزارتهم ويصغى الملك إلى رأيه فى أمر الدولة.

قال القـاضى أبو بكر: فلما رأيت ذلك كـرهت أنْ أتقدم على الناس، وأتخطى رقابهم، من غـير أنْ أرفع، ولم تدعنى نفسى أنْ أقعـد فى أخريات الناس، وكان عن يمين الملك المجلس خاليا، ولا يقعد هناك إلاّ ملك أو وزير عظيم المنزلة، فمضيت وقعدت عن يمـينه بحذاء قاضى القضاة، فوجدوا من ذلك وفزعـوا واضربوا، لأنه كـان عندهم من الجنايات العظام، ومـا كان فى المجلس من يعرفنى إلاّ رجل واحـد فقال للقاضى: أطال الله بقـاء سيدنا هذا هو الرجل الذى طلبه الملك مولانا. فقال قاضى القضاة: أطال الله بقاء مولانا هذا هو الرجل الذى كتبت فيه، وهو لسان المثبتة، فنظر إلى الغلمان بين يديه والحجـاب فطاروا من بين يديه، ثم قـال لهم: اذكروا له مـسألة. وكـان فى المجلس رئيس البغداديين وهو الأحدب، ومـا كان زمانه أفصح منه ولا أعلم منه عندهم، فـأما البصـريون فحـضر منهم خلق كـثير أقـدمهم أبو إسـحاق النصيبى. فقال الأحدب لتلاميذه: سلوه: هل لله تعالى أنْ يكلف الخلق ما لا يطيـقونه أو ليس له ذلك؟ فـقال الرجـل للقاضى: هل لله تعـالى أنْ يكلف الخلق مـا لا يطيقـونه أو ليس له ذلك؟ فـقال له القـاضى أبو بكر: إنْ أردت بالتكليف القول المجرد فالقول المجرد قد توجه لأن الله تعالى قال: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** ﴿٥٠﴾﴾ [الإسراء]، ونحن لا نقدر أنْ نكون حـجارة ولا حديدا

وقال تعالى: ﴿ ... أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) ﴾ [البقرة]، فطلبهم بما لا يعلمون، وقال تعالى: ﴿ ... وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]، وهذا كله أمر بما لا يقدر عليه الخلق، وإنْ أردت التكليف الذى نعرفه وهو ما يصح فعله وتركه فالكلام متناقض وسؤالك فاسد.

فأخذ الأحدب الكلام وقال: أيها الرجل،أنت سئلت عن كلام مفهوم، فطرحته فى الاحتمالات، وليس ذلك بجواب، والجواب - إذا سئلت: هل لله تعالى أنْ يكلف الخلق ما لا يطيقون - أنْ تقول: نعم له أنْ يكلف أو ليس له أنْ يكلف. فعدلت عن الجواب إلى ما ليس بجواب وهذا اضطراب شديد.

قال القاضى: فلما لم يوقرنى، ولم يخاطبنى بما يليق، قلت له: أيها الرجل أنت عائم ورجلاك فى الماء، إنى طرحت الكلام فى الاحتمالات، فَلَمْ تعدل أنت إلاّ لعجز أو لعى، فإن كان معك كلام فى المسألة، وإلاّ تكلم فى غيرها.

فقال الملك للأحدب: هذا قد بين الاحتمالات، وتلا عليك الآيات. ثم إنى ما جمعتكم إلاّ لنستفيد، لا للمهاترة، ولا لما لا يليق بالعلماء. ثم التفت إلى وقال لى: تكلم على المسألة فقالت: ما لا يطاق على ضربين: أحدهما يطاق للعجز عنه، والآخر لا يطاق للاشتغال عنه بضده كما يقال: فلان لا يطيق التصرف لاشتغاله بالكتابة وما أشبه ذلك، وهذا سبيل الكافر: إنَّه لا يطيق الإيمان، لا لأنّه عاجز عن الإيمان، لكنه لا يطيقه لاشتغاله بضده الذى هو الكفر، فهذا يجوز تكليفه بما لا يطاق.

وأما العاجز فما ورد فى الشريعة تكليفه، ولو ورد لكان صوابا، وقد

أثنى الله تعالى على من سأله ألاّ يكلفه ما لا طاقة له به، لأن الله تعالى له أنْ يفعل فى ملكه ما يريد.

ثم تجاوز الأحدب إلى غيره من الكلام، ومال الملك إلى قول القاضى أبى بكر.

قال القاضى: ثم سألنى النصيبى عن مسألة الرؤية: هل يرى البارئ سبحانه بالعين؟ وهل تجوز الرؤية عليه أو تستحيل؟ وقال: كل شىء يرى بالعين فيجب أنْ يكون فى مقابلة العين. فالتفت الملك إلى القاضى أبى بكر وقال له: تكلم أيّها الشيخ فى المسألة.

فقال القاضى: لو كان الشىء يرى بالعين لوجب أنْ يكون فى مقابلة العين على ما قال، ولكن لا يرى الشىء بالعين. فتعجب الملك من ذلك والتفت إلى قاضى القضاة فقال: إذا لم ير الشىء بالعين فبأى شىء يرى؟ فقال: يسأله الملك. فقال: أيّها الشيخ فبأى شىء يرى إذا لم ير بالعين؟ فقال أبو بكر يرى بالإدراك الذى فى العين. ولو كل شىء يرى بالعين لكان يجب أنْ نرى كل عين قائمة وقد علمنا أنَّ الأجهر عينه قائمة ولا يرى شيئًا.

فزاد الملك تعجبا وقال للنصيبى: تكلم. فقال النصيبى: إنى لم أعلم أنَّه يقول هذا، ولا بنيت إلاّ على ما نعرف، وظننت أنَّه يسلم أن الشىء يرى بالعين. فغضب الملك وقال: ما أنت مثل الرجل لأنك بنيت المسألة على الظن. ثم التفت إلىَّ وقال: تكلم. فقلت: العين لا تَرَى، وإنما تُرَى الأشياء بالإدراك الذى يحدثه الله تعالى فيها وهو البصر، ألا ترى أنَّ المحتضَر يرى الملائكة ونحن لا نراهم؟ وكان النبى ﷺ يرى جبريل عليه السلام ولا يراه من يحضره؟ والملائكة يرى بعضهم بعضا ولا نراهم نحن؟ والدليل على جواز

رؤية البارئ تعالى أنَّه ليس فيها قلب للحقائق، ولا إفساد للأدلة، ولا إلحاق صفة نقص بالقديم تعالى، فوجب أنْ يكون كسائر الموجودات، لأنّه تعالى موجود، والشيء إنّما يُرى لأنّه موجود، لأنَّ المرئى لم يكن مرئيا لأنّه جنس، لأنا نرى سائر الأجناس المختلفة، ولا لقيام معنى بالمرئى، لأنا نرى الأعراض التى لا تحتمل المعانى، وقد ثبت بالنص وجوب رؤية الحق سبحانه فى الدار الآخرة. ثم طول الكلام.

قال ولم يزل فنا خسرو يتقرب إليه وينزل عن سريره ملكه حتى صار بين يديه لما استعذب من كلامه.

فلما فرغ من المسألة، قيل للفارابى صاحب المنطق: تكلم معه فتلجلج فى كلامه واقشعر وقال: إنما أنا صاحب أصطرلاب، ما قدر هؤلاء وهم فرسان الكلام: الأحدب وبرغوث وغيرهم على جدالة.

فخرج القاضى أبو بكر وأمر الملك بإنزاله والجراية عليه وقال: والله ما كنت إلاّ مفكرا بأى لون من القتل أقتله إذا لم يستحق مكانه، وأما الآن فقد ظهر لى أنَّه أحق بمكانى هذا، ولكنى مبتلى بالملك. انتهى.

***

والمراد بالمثبتة هنا: أهل السنة، والزمخشرى يسميهم المجبرة، وقع له ذلك وفى أماكن من الكشاف منها فى تفسير قوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ... ﴿١٠٠﴾**﴾ [المائدة]، وفى وقوله سبحانه: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ ... ﴿٢٢﴾**﴾ [إبراهيم]. ولصاحب «الانتصاف من الكشاف» ولصاحب «فتوح الغيب» فى الرد عليه عند تفسير الآيتين كلام حسن ينبغى الوقوف عليه.

وسمى أهل السنة المجبرة، لاعتقاده قرب مذهبهم من مذهب الجبرية، لا سيما وقد قال بعض أئمة أهل السنة: «وبالجبر أقول والله المستعان».

وقد حدثنا شيخنا الاستاذ سيدى أبو عبد الله الكبير، عن شيخه أبى عبد الله العكرمى، وكان لسنا، أنَّه كان كثيرا ما يقول: إمامان عظيمان قالا بالجبر من أئمتنا: القاضى أبو بكر بن العربى، والفخر بن الخطيب، كما أنَّ إمامين عظيمين من أئمتنا نسب إليهما القول بالجهة وهما أبو محمّد بن أبى زيد، وأبو عمر بن عبد البر، وجنح لذلك ابن المرابط فى تفسير البخارى وهو ديوان كبير بخزانة جزيرة الأندلس.

ثم عند محبكم تردد فى أبى بكر بن مجاهد هذا، هل هو شيخ أئمة الإقراء الذى يعتمد عليه أبو عمرو الدانى فى «إيجاز البيان» وفى التمهيد كثيرا. وقال فيه الجعبرى إنَّه المسبع الأول. صنف كتاب السبعة على رأس الثلاث مئة. وقال أبو على الأهوازى: هو الذى أخرج يعقوب من السبعة وجعل الكسائى مكانه. وهو الذى قال له الشبلى: أين تجد فى القرآن العزيز أنَّ الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: لا أدرى. فأشار إلى قوله تعالى: ﴿... **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم** ... ﴿١٨﴾﴾ [المائدة] حسبما بسطه القاضى أبو الفضل عياض فى ترجمة الشبلى من المدارك. وفى ظنى أنَّ اسم المقرئ موسى، وقد سمى هذا هاهنا محمّدا، فلسيدنا الفضل فى تحقيق ذلك لنا فى كتاب طبقات القراء لأبى عمرو الدانى، ومن تعريف الجعبرى الذى ختم به شرح القصيد، وهما بخزانة جامع القرويين عمره الله تعالى.

ولله در على بن المدينى حيث قال: أشد التصحيف، التصحيف فى أسماء الرجال. ولا شك أنَّ هذا موضع لبس كابنى وابنى زياد، ممن اتحد اسمه، وتعدد مسماه، وكالأبهرى والصالحى فى عكسه.

ورحم الله الشيخ الفقيه سيدى أبا محمّد عبد الله العبدوسى، فقد حدثنى عنه التقة أنَّه كان يمثل هذا المعرض الذى نحن بصدده، بقضية القاضى أبى بكر ابن العربى، فإن كثيرا من الناس ينكرون أنْ يكون هو المدفون خارج باب المحروق، ويقولون إنما هو مدفون خارج باب الجيسة، واغتروا فى ذلك بظواهر التواريخ. وذلك أن القاضى أبا الفضل عياض ذكر فى «الغنية» أنه دفن خارج باب الجيسة[1] قال: وجوابه أنَّ باب المحروق لم يكن فتح فى ذلك الوقت، وإنما فتح على رأس ست مئة سنة، فكان ذلك الخارج كله ينسب لباب الجيسة، ثم يدفع فى صدر هذا الجواب ما فى بعض هذه التواريخ أنه دفن على مقربة من حارة الجذمى. قال: وجوابه أنَّ الجذمى كانوا هناك قديما، حتى تضرر أهل فاس بسكناهم على رأس مائهم، فنقلوا إلى موضعهم اليوم.

ثم يرد على هذا أنا نجد عند باب الجيسة إلى جنب حارة الجذمى قبر رجل يسمى بابن العربى يقصده الناس بالزيارة كثيرا فلعله هو. قال: وجوابه أنَّ ذلك رجل آخر يدعى أيضًا بابن العربى كان مُوَقِّتًا فى القرويين.

قلت: ويزاد فيه أنَّ الفقيه هو أبو بكر، وهذا الذى خارج باب المحروق اشتهر بأبى يحيى. وجوابه أنهما كنيتان مترادفتان على مسمى واحد وبالله سبحانه وتعالى التوفيق.

وقد هذى محبكم هنا وهجر، وأهدى التمر لأهل هجر، وجلب العنبر إلى البحر الأخضر، فلكم الفضل فى الإغضاء، والتجاوز والإمضاء.

وكتب فى أوائل ذى الحجة الحرام خاتم عام سبعة وتسعين وثمانمائة عرفنا الله خيره، ووقانا ضيره، والسلام الكريم يخص مقامكم العلى، ومنصبكم السمى، وأهليكم وذويكم، ومن هو منكم وفيكم، ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

(١) الغنية ص ٤٠.

انتهى التأليف العجيب للشيخ العلامة أبى عبد الله بن غازى رحمه الله.

ووجدت فى آخره ما نصه: الحمد لله. وكذلك يسلم على كريم مقامكم خديمكم أحمد بن محمّد بن غازى، قاصدا بتوالى كتبه التبرك بكم، ملتمسا منكم الدعاء، أفاض الله علينا من بركاتكم، ونفعنا بمحبتكم، بجاه النبى عليه السلام. انتهى.

وأوردت جميعه لما قدمته، والله تعالى المنجد المعين.

* * *

قلت: وقد وقفت على كلام لبعض الأقدمين «ينفى الاحتمال» فى أمر ابن العربى المذكور ونصه: توفى ابن العربى منصرفه من مراكش بموضع يعرف بأغلان، على مسيرة يوم من فاس، غربا منها، فاحتمل فينا إلى فاس فى اليوم الثانى من موته، وذلك يوم الأحد السابع من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة، ودفن بأعلى مدينة فاس، خارج القصبة، بتربة القائد مظفر، وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج رحمه الله. انتهى.

وقدمنا عن ابن بشكوال أنه توفى فى ربيع الآخر من هذه السنة، فالله أعلم.

وقد ذكر بعض من شرح الشفا أنَّ ابن العربى توفى سنة اثنتين وأربعين.

قلت: وهو غير صحيح إن شاء الله تعالى وإنما الصحيح ما قدمته.

ومن صلابة الإمام أبى بكر بن العربى رحمه الله أنَّه حكم فى زامر بثقب أشداقه، حسبما نقله صاحب المعيار وغيره.

ومن بديع نظمه رحمه الله:

أتتنى تؤنبى بالبكا فأهلا بها وبتأنيبها

تقول وفى نفسها حسرة أتبكى بعين ترانى بها

فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت جفونى بتعذيبها

وقال رحمه الله: دخل على ابن صارة، وبين يدى نار قد علاها رماد، فقلت: لتقل فى هذا فقال:

شابت نواصى النار بعد سوادها وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لى ابن صارة: أجز. فقلت:

شابت كما شبنا وزال شبابنا فكأنما كنا على ميعاد

وحكى غير واحد أنَّ القاضى أبا بكر بن العربى رحمه الله، بينما هو جالس فى محل درسه إذ دخل شاب من الملثمين وبيده رمح، فهزه، فقال القاضى أبو بكر رحمه الله:

يهز على الرمح ظبى مهفهف لعوب بألباب البرية عابث

فلو كان رمحا واحدا لاتقيته ولكنه رمح وثانى وثالث

وقد اختلف حذاق الأندلس من أهل الأدب فى معنى الرمح الثانى والثالث، وأكثرهم يقول: هما القد واللحظ، والله اعلم.

ولما ذكر الإمام ابن العربى المذكور رحمه الله فى كتاب قانون التأويل ركوبه البحر فى رحلته من إفريقية قال:

وقد سبق فى علم الله أن يعظم علينا البحر بزَوْله، ويغرقنا فى هوله،

obeikandl.com

فخـرجنا من البحر خروج الميت من القـبر، وانتهـينا بعد خطب طويل، إلى بيوت بنى كـعب بن سليم، ونحن من السغب على عـطب، ومن العرى فى أقبح زى، قـد قذف البحـر زقاق زيت، مزقـت الحجارة منيـئتهـا، ودسمت الأدهان وبردها وجلدها فاحـتزمناها أزرا، واشتملناها لفـعا، تمجنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا، فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا، وكسـانا بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم ظريف.

وشرحه: أنا لما وقـفنا على بابه ألفيناه، يدير أعواد الشاه، فـعل السامد اللاه، فدنوت منه فى تلك الأطمار، وسمح لى بيـاذقته، إذ كنت من الصغر فى حدّ يسمح فيه للأغمار، ووقفت بإزائهم، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم، إذ كان علق بنفـسى بعض ذلك من بعض القرابة فى خلس بـطالة، مع غلبة الصبوة والجهالة، فقلت للبياذقـة: الأمير أعلم من صحابه، فلمحونى شزرا، وعظمت فى أعينهم بعد أنْ كنت نَزْرا، وتقـدّم إِلَى الأمير مَنْ نقل إليه الكلام فاستـدعانى، فدنوت منه، وسألنى: هل لـى بما هم فيه بصر؟ فقـلت لى فيه بعض نظر، سيبدو لك ويـظهر، حرك تلك القطعة ففعل، وعارضـه صاحبه فأمرته أنْ يحـرك أخرى، وما زالت الحركة بينهم كذلك تتـرى، حتى هزمهم الأمير، وانقطع التديبـر فقال: ما أنت بصغيـر. وكان فى أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشدا:

وأحلى الهوى ما شـك فى الوصل ربه وفى الهجر فهو الدهـر يرجو ويتقى

فقال: لعن الله أبا الطيب! أو يشك الرب؟!

فقال له فى الحال: ليس كما ظن صـاحبك أيّها الأمير، إنما أراد بالرب هاهنا الصاحب. يـقول: ألذ الهوى مـا كان المحب فيـه من الوصال، وبلوغ

الغرض من الآمال على ريب، فهو فى وقته كله على رجاء لما يؤمله، وتقاة لمّا يقطع به كما قال:

إذا لم يكن فى الحب سخطا ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض، فى طرفى الإبرام والانتقاض، ما حرك منهم إلى جهتى داعى الانتهاض، وأقبلوا يتعجبون منى، ويسألوننى كم سنى؟ ويستكشفوننى عنى، فبقرت لهم حديثى، وذكرت لهم نجيثى، وأعلمت الأمير بأن أبى معى، فاستدعاه، وقمنا الثلاثة إلى مثواه، فخلع علينا خِلَعه، وأسبل علينا أدمعه، وجاء كل خِوان بأفنان الألوان.

ثم قال بعد المبالغة فى وصف ما نالهم من إكرامه:

فانظر إلى هذا العلم الذى هو إلى الجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذانا من العطب؟ وهذا الذى يرشدكم إنْ غفلتم إلى الطلب.

وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر. انتهى مختصرا.

والزول العجب. ونجيث الخبر: ما ظهر من قبيحه يقال: بدا نجيث القوم: إذا ظهر سرهم الذى كانوا يخفونه. قالهما الجوهرى.

إفادة: قال الإمام غازى رحمه الله:

فى هذه الرحلة لقى ابن العربى شيخيه دانشمند الأكبر، وهو إسماعيل الطوسى، ودانشمند الأصغر، وهو أبو حامد الغزالى الطوسى. ومعنى «دانشمند» بلغة الفرس عالم العلماء، وكان شيخنا الأستاذ أبو عبد الله الصغير

يحكى أنا عن شيخه أبى محمّد عبد الله العبدوسى أنَّه بلغه أن الفرس يفخمون ميم دانشمند. والله تعالى أعلم.

قال ابن العربى فى قانون التأويل: ورد علينا دانشمند يعنى الغزالى، فنزل برباط أبى سعد، بإزاء المدرسة النظامية، معرضا عن الدنيا، مقبلا على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلنا له: أنت ضالتنا التى كنا ننشد، وإمامنا الذى به نسترشد. فلقيناه لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة، وتحققنا أنَّ الذى نقل إلينا من الخبر على الغائب فوق المشاهدة، ليس على العموم، ولو رآه على ابن العباس لما قال:

إذا ما مدحت امرأ غائبا فلا تغل فى مدحه واقصد
فإنك إنْ تغلُ تغل الظنو ن فيه إلى الأمد الأبعد
فيصغر من حيث عظمته لمفضل المغيب على المشهد

انتهى.

***

وقال بعض من عرف به، أعنى بابن العربى رحمه الله، ما نصه[1]: علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الألباب، الذى أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا فى يد الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به الأندلس، بعد ما أجدبت من المعارف، ومدّ عليها منه الظل الوارف، فكساها رونق نبله، وسقاها رَيِّق وَبْله، وكان أبوه أبو محمّد بإشبيلية بَدْرًا فى فلكها، وصدرًا فى مجلس ملكها، واصطفاه متمد بن عباد اصطفاء المأمون لابن أبى دُوَاد، ولاه الولايات الشريفة، وبوأه المراتب المنيفة،

(١) نفح الطيب ج٢ ص ٣٣.

openkandil.com

فلما أقفزت حمص من ملـكهم وخلت، وألقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفَرِق، فجال فى أكنافه، وأجال قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه، فلم يسترد ذاهبا، ولم يجد كمعتمده باذلا زاهيا، فعاد إلى الرواية والسـماع، وما استفاد مـن إجالة تلك الأطماع، وأبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء، قـضيب مـا دَوَّح، وفى روض الشباب زهر مـا صوح، فألزمه مجالس العلم رائحا وغاديا، ولازمه سائقا إليها وحاديا، حتى استقرت به مجالسـه، واطردت له مقايسه، فـجد فى طلبه، واستجـد به أبوه منخرق أربه، ثم أدرك حمـامه، ووراته [هناك][1] رجامـه، وبقى أبو بكر متـفردًا، وللطلب متجردا، حتى أصبح فى العلم وحيدًا، ولم تجد عنه الرياسة محيدا، فكر إلى الأندلس، فحلها والنفـوس إليه متطلعة، ولأنبائه متـسمعة، فناهيك من حظوة لقى، ومن عزة سقى، ومن رفـعة سما إليهـا ورقى، وحسبك من مفاخر قلدها، ومن محاسن [أنس][1] أثبتها فيها وخلدها.

وقد أثبت من بديـع نظمه ما يهـز أعطافا، وترده الأوهام نطافـا. فمن ذلك قوله يتشوق إلى بغداد، ويخاطب أهل الوداد:

أمنك سرى والـليل يخدع بالفـجر ... خيال حبيب قد حوى قصب الفخر[2]

جـلا ظلم الظلمـاء مـشـرق نوره ... ولم يخـبط الظلمـاء بالأنجم الزهر

ولم يرض بالأرض البسيطة مسحبا ... فسار على الجـوزا إلى فلك يجرى

وحث مطـايا قـد مطاهـا بعـزة ... فـأوطأها قـسـرا علـى قنة النسـر

(١) التكملة من نفح الطيب ٢/ ٣٤.

(٢) نفح الطيب ٢/ ٣٤.

فـصارت ثقـالا بالجـلالة فـوقهـا وسـارت عجـالا تتقى ألم الرجـر
وجـرت على ذيل المجـــرة ذيلهـا فمن ثـم يبدو ما هناك لمـن يسرى
ومرت على الجـرباء توضع فوقـها فـآثار مـا مـرت بـه كلف البـدر
وسافت أريج الخلد من جنة العلى فدع عنك رمـلا بالأنيعم يسـتذرى
فما حـذرت قيسا ولا خـيل عامر ولا أضمرت خوفًـا لقاء بنى ضمر
سـقى الله مصـرا والعراق وأهلهـا وبغـداد والـشـامـين منهـل القطر

انتهى.

وما أقـربه من نفس الفـتح، صاحب القـلائد والمطمح، ولعل هذا من كلامه فى المطمح. والله اعلم.

وقد طال الكلام، ولكن لا يلحقنا فى مثله الملام.

***

ومن تآليف[1] الإمام أبى بكر بن العربى المذكـور، كتاب «القبس، فى شرح موطأ مالك بن أنس» وكتاب «ترتيب المسالك، فى شرح موطأ مالك»، وكتـاب «أنوار الفجـر» فى تسعين سـفرًا، وكتـاب «أحكام القرآن»، وكـتاب «عارضة الأحوذى - بـفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة، وفـتح الواو، وكسر الذال المعجمة، وآخره ياء مشددة - على الترمذى»، وكتاب «مراقى الزلف»، وكتـاب «الخلافيات»، وكـتاب «نواهى الدواهى»، وكتـاب «سراج المريدين»، وكـتاب المشكلين»: مـشكل القـرآن والسنة، وكـتاب «الناسخ والمنسـوخ فى

(١) نفح الطيب ٢/ ٣٥.

obeikandl.com

القرآن»، وكتاب «قانون التأويل»، وكتاب «النيرين فى الصحيحين»، وكتاب «سراج المهتدين»، وكتاب «الأمد الأقصى، بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا»، وكتاب فى الكلام على «مشكل حديث السبحات والحجاب»، وكتاب «العقد الأكبر، للقلب الأصغر»، و«تبيين الصحيح، فى تعيين الذبيح»، و«تفضيل التفضيل، بين التحميد والتهليل»، ورسالة «الكافى، فى أن لا دليل على النافى»، وكتاب «السباعيات»، وكتاب «المسلسلات»، وكتاب «التوسط فى المعرفة بصحة الاعتقاد، والرد على من خالف أهل السنة من ذوى البدع والإلحاد»، وكتاب «شرح غريب الرسالة»، وكتاب «الإنصاف»، وكتاب «ملجئة المتفقهين، إلى معرفة غوامض النحويين».

ورأيت فى بعض المجاميع ما نصه: قال القاضى أبو بكر بن العربى رحمه الله: قال علماء الحديث: ما من رجل يطلب الحديث إلاّ كان على وجهه نضرة، لقول النبى ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها، فأداها كما سمعها». الحديث.

قال: وهذا دعاء منه عليه السلام لحملة علمه، ولا بد بفضل الله من نيل بركته.

وإلى هذه النضرة أشار أبو العباس العزفى رحمه الله بقوله[1]:

أهل الحديث عصابة الحق ... فازوا بدعوة سيد الخلق

فوجوههم زهر منضرة ... لألاؤها كتألق البرق

يا ليلتى معهم فيدركنى ... ما أدركوا بها من السبق

انتهى.

(١) نفح الطيب ٢/ ٣٦.

ومن أشياخ القاضى عياض رحمه الله:

القاضى أبو عبد الله بن حمدين التغلبى[1]، وهو محمّد بن على بن محمّد بن عبد العزيز بن أحمد التغلبى، بمثناه من فوق، وغين معجمة، منسوب لتغلب بكسر اللام وفتحها.

ولد سنة تسع وثلاثين وأربع مئة؛ ومات يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمس مئة؛ ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر.

وقال فى حقه صاحب القلائد[2]:

حامى ذمار الدين وعاضده، وقاطع ضرر المعتدين وخاضده، ملك للعلوم زمامًا، وجعل العكوف عليها لزاما، فحيا رسمها، وأعلى اسمها، وخاصمت الملحدين منه ألسن لد، وتهدلت به على العالمين أغصن ملد، وكف أيدى الظالمين، فلم تكن لهم استطالة؛ وأرهف خواطر المجتهدين، فلم تسنح لهم بطالة؛ فأصبح أهل مصره بين دارس علم، ولابس حلم، وآيس ظلم؛ ناهيك من رجل كثير الرعى لأهل المعارف، مُؤْوٍ مِنْ برّه إلى ظل وارف؛ أعم الورى مِنَّه، وأعظم خلق الله مُنّه؛ وأقام وأدنى وأبعد، وأنحس وأسعد؛ فتقلصت به الظلال وفاءت، وحسنت به الأيام وساءت؛ وأعمل للضرر والنفع لسانه ويده، وشغل بالرفع والوضع يومه وغده، وعمر بهما فكره وخلده؛ حتى هد الجبال الشوامخ، واجتث الأصول الرواسخ.

ولما أدار ابن الحاج من خلافه سنة تسع وتسعين ما أدار، واتفق هو ومن واطأه على ما فسخته الأقدار، استشير فى الخلع فما أساغه، وأريغ ضيره فلم

(١) فهرست شيوخ القاضى عياض (الغنية) ص ٢٤.

(٢) قلائد العقيان، ص ٦١٠.

يكن فيمن راغـه، وعوض على الحمام فمـا هابه، ووالى فى نقض ما أبرموه جيئته وذهابه، وسمح فى ذلك بنفسه، وقنع من غده بذكر أمسه.

فلما انجـلت ظلماؤه، وتحلت بنجـوم ظفره سـماؤه، أغرى بالمطالـبين اهتضامه وحـيفه، وسرى إليهم مكره سرى قيـس لحمل وحذيفة، وأعلن لمن أسـر إغراء ولم ينظر بالمكروه نظـراءه، فأخـمل منهم أعلامـا، وأورث نفس الدين منهم آلامـا، وألبسهم مـا شاء ذمـا من الناس وملاما، فـدجت مطالع شموسهم، وخلت مواضع تدريسـهم، فأصبحوا ملتحفين بالمهـانة، متشوفين إلى الإهانة، يروعهم الرواح والغدو، ويحسبون كل صيحة عليهم هم العدو، ويذعرهم طروق النوم للأجفان، وينكرهم الثابت العرفان، فقد فقدوا حبورًا، وعادت منازلهم قبـورًا، إلى أن نفس مُخَنَّقهم بعد أحوال، وخـلا أفقهم من تلك الأهوال، فتنشقوا ريح الحياة، وأشرقوا من تلك الظلمات، بعد أن أحال البؤس نعيمهم، وأخذ الحمام زعيمهم.

وكان رحـمه الله مـتضح [طريق][1] الهدى، منفـسح الميدان فى العلم والندى، مع أدب كـالبحـر الزاخر، ونثر كـالدر الفاخـر، وقد أثبت مـنه ما تعذب مقاطفـه، وتلين معاطفه. فمن ذلك فضل راجع به ابن شـماخ: عمر بابك، وأخصب جنابك، وطاوعك زمانك، ونعم بك أوانك.

وسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

فما درج لـسبيله من كنت سلالة سليله، ووارث مـعرسه ومقـيله، وما خام وضـرع، فخر رمى عن وتر قوسك ونـزع، ولم يهلك هالك، ترك مثل مالك، فتركت المهاد، وألفت السهاد، وتقيلت الآباء والأجداد، فأسرجت فى

(١) التكملة من قلائد العقيان، ص ٦١٢.

ميدان الحمد براقا، اتخذ [الريح][1] خافية وساقا، فاحتل من شعاب المجد صعقا، أثار به نقعا، ودوم فى أفق السماء، تدويم فرخ الماء، حتى كأنه على قمة الرأس ابن ماء، فحق لباهر فضلك أن يطول فيقول:

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى

أو يتنزل فيتمثل:

لَسْنا وإن أحسابنا كرمت يوما على الأحساب نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

كم متعاط شأو طلقك، سولت له نفسه شق غبارك، واقتفاء منهاج آثارك فما أدرك، وطلح بَعِيرُه وَبَرَك.

وفى فصل منها[2]:

بيننا وسائل، أحكمتها الأوائل، ما هى بالأنكاث، والوشائج الرثاث من دونها عهد، جناه شهد، أرج عرف النسيم، مشرق جبين الأديم، رائق رقعة الجلباب، مقتبل رداء الشباب، كالصباح المنجاب، تروق أساريره، وتلقاك قبل اللقاء تباشيره.

ورثناهن عن آباء صدقٍ ونورثها إذا متنا بنينا

***

(١) التكملة من قلائد العقيان، ص ٦١٣.

(٢) قلائد العقيان، ص ٦١٣.

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض:

الفقيه الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية[1] رحمه الله.

قال صاحب القلائد فى حقه:

شيخ العلم وحامل لوائه، وحافظ حديث النبى ﷺ وكوكب سمائه، شرح الله لتحفظه صدره، وطاول به عمره، مع كونه فى كل علم وافر النصيب مياسراً بالمعلى والرقيب، رحل إلى المشرق لأداء الفرض، لابس برد من العمر الغض، فروى وقيد، ولقى العلماء وأسند، وأبقى تلك المآثر وخلد. نشأ فى نبتة كريمة، وأرزمة من الشرف غير مرومة، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلام علم، وأرباب مجد ضخم، قد قيدت مآثرهم الكتب، وأطلعتهم التواريخ كالشهب، وما برح الفقيه أبو بكر يتسنم كواهل المعارف وغواربها، ويقيد شوارد المعانى وغرائبها، لاستضلاعه بالأدب الذى أحكم أصوله وفروعه، وعمر برهة من شبيبته ربوعه، وبرز فيه تبريز الجواد المستولى على الأمد، وجلى عن نفسه به كما جلى الصقال عن النصل الفرد، وشاهد ذلك ما أثبته من نظمه الذى يروق جملة وتفصيلاً، ويقوم على قوة العارضة دليلاً.

فمن ذلك قوله يحذر من خلطاء الزمان، وينبه على التحفظ من الإنسان قال[2]:

كن بذئب صائدٍ مستأنسًا ... وإذا أبصرت إنسانًا ففِرْ

إنما الإنسان بحر ماله ... ساحل فاحذره إياك الغرر

واجعل الناس كشخص واحد ... ثم كن من ذلك الشخص حذر

(١) قلائد العقيان، ج٣ ص ٦٣٦، والغنية، ص ١٤٢.

(٢) قلائد العقيان، ص ٦٣٨.

وله فى الزهد[1]:

أيهـــا المطرود من باب الـرضـــا كم يراك الله تلـهـو مـــعـرضـــا
كم إلى كم أنت فى جـهل الصبـا قد مـضى عمـر الصـبا وانقـرضا
قم إذا الـليل دجت ظـلمـــتـــه واسـتـلذ الجـفن أن يـغـمـــضـا
فـــضع الخـــد عـلى الأرض ونح واقـرع السن على مـا قـد مـضى

وقال فى هذا المعنى[2]:

قـلـبى يـا قـلـبـى المعـنـى كم أمـا أدعى فـــلا أجـيب
كم أتمـادى على ضـــــلال لا أرعـــــوى لا ولا أنـيب
ويلاه من سـوء مـــا دهانى يتـــوب غـيـــرى ولا أتوب
وا أســـفـا كـــيف برء دائى دائى كـمـا شـــاءه الطبـيب
لو كنـت أدنو لكنـت أشكو مـــا أنا من بـابه قـــريب
أبعـــدنى منه سـوء فـــعلى وهكـذا يبـــعـــد المـريب
مـــا لى قـــدر وأى قـــدر لمـن أخـلـت بـه الـذنـوب

وله فى المعنى أيضًا:

لا تجـعلن رمـضـان شـهـر فكاهة تلهـيك فـيـه من الـقـبـيح فنونه
واعلـم بأنك لا تنـال قـبـــوله حـتى تـكون تصـومـه وتـصـونه

وله فى مثل ذلك:

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون وفى بصرى غض وفى مقولى صمت

(١) قلائد العقيان، ص ٦٣٧.
(٢) قلائد العقيان، ص ٦٣٩.

obeikandl.com

فحظى إذن من صومى الجوع والظمأ وإن قلت إنى صمت يومى فما صمت

وله فى المعنى الأول[1]:

جفوت أنسانًا كنت آلف وصلهم وما فى الجفا عند الضرورة من باس
بلوت فلم أحمد وأصبحت آيسا ولا شىء أشفى للنفوس من الياس
فلا عذلونى فى انقباضى فإننى رأيت جميع الشر فى خلطة الناس

وله يعاتب بعض أخوانه[2]:

وكنت أظن أنَّ جبال رضوى تزول وأن ودت لا يزول
ولكن الأمور لها اضطراب وأحوال ابن آدم تستحيل
فإن يك بيننا وصل جميل وإلاّ فليكن هجر طويل

وأما شعره الذى اقتدحه من مرخ الشباب وعفاره، وكلامه الذى وشحه بمآرب الغزل وأوطاره، فإنه أُنسى إلى ما تناساه وتركه حين كساه العلم والورع من ملابسه ما كساه. فمما وقع من ذلك قوله:

كيف السلو ولى حبيب هاجر قاسى الفؤاد يسومنى تعذيبا
لّما درى أنَّ الخيال مواصلى جعل السهاد على الجفون رقيبا

وله أيضًا رحمه الله[3]:

يا من عهودى لديكِ ترعى أنا على عهدك الوثيق
إنْ شئتِ أنْ تسمعى غرامى من مخبر عالم صدوق
فاستخبرى قلبكِ المعنى يخبرك عن قلبى المشوق

انتهى.

(١) قلائد العقيان، ص ٦٣٩.
(٢) قلائد العقيان، ص ٦٣٨.
(٣) قلائد العقيان، ص ٦٤٠.

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله:

الشيخ الإمام النحوى الأديب اللغوى أبو عبد الله بن محمّد بن السيد - بكسر السين - البطليوسى - بفتح الموحدة والطاء المهملة والتحتانية وسكون اللام والواو - نزيل بلنسية[1].

قال السيوطى فى الطبقات: كان عالما باللغات والآداب، متبحرا فيهما، انتصب لإقراء علم النحو، واجتمع إليه الناس، وله يد فى العلوم القديمة. ذكره فى قلائد العقيان وبالغ فى وصفه.

وكان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس صورة: رحمون وعزون وحسون فأولع بهم وقال فيهم:

أخفيت سقمى حتى كاد يخفينى وهمت فى حب عزون فعزونى
ثم ارحمونى برحمون فإنَّ ظمئت نفسى إلى ريق حسون فحسونى

ثم خاف على نفسه فخرج من قرطبة.

صنف: شرح أدب الكتاب، شرح الموطأ، شرح سقط الزند، شرح ديوان المتنبى، إصلاح الخلل الواقع فى الجمل، الحلل فى شرح أبيات الجمل، المثلث، المسائل المنثورة فى النحو، وله كتاب «التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى رأيهم واعتقاداتهم» وهو كتاب عظيم. لم يصنف مثله وغير ذلك. ولد سنة أربع وأربعين وأربع مئة، ومات فى رجب سنة إحدى وعشرين وخمس مئة [ببلنسية][2].

---

(١) الغنية ص ١١٤.

(٢) التكملة من بغية الوعاة.

obeikandl.com

ومن شعره:

أخـو العلم حى خـالد بعد مـوته وأوصـــاله تحت التـــراب رمـــيم

وذو الجـهـل مـاش على الـثـرى يظن مـن الأحـيـــاء وهو عـــديم

ذُكِر فى جمع الجوامع. انتهى كلام السيوطى فى الطبقات.

***

ترجمة ابن السيد البطليوسى للفتح بن خاقان

ورأيت تأليفا بديعا للفتح صاحب القلائد والمطمح، ضمنه التعريف بهذا الإمام ابن السيد خاصة، وهأنا أورده بجملته لغـرابته وفصاحته وبلاغته، وإنْ كان فيه بعض ما هو من قبـيل الهزل، الذى الإعراض عنه أولى، وقد جرت عادة الأشياخ بذكر مثل ذلك، وحسـبك ما ذكره الإمام السيوطى آنفا فى حق ابن السيـد. وقد اغتـفر الناس المقامـات مع ما فيـها من سخـيف المقالات، والأعمال بالنيات.

قال ذو الـوزارتين الكاتب أبو نصر الفـتح بن عبـيد الله المعـروف بابن خاقان رحمه الله:

أمـا بعد حـمـد الله الذى جـعل الليل لبـاسا، وأزال عـن قلوبنا شكا والتباسا، وأرانا من الهدى منارا، وجعل لنا من الشجر الأخضر نارا، وخلقنا أطوارا، وأطلع لنا شـموسا وأقـمارا، تدل على حكمتـه، ويستـدل بها على مقدار نعمته.

والصلاة على نـبيه الذى بعـثنا من مرقـد الضلالة، وجلى عنا غـياهب الجهالة، فظهر الرشاد بعد احتجابه، وتوارى الغى فى حجابه ﷺ تسليما.

فإنى لمّا فـرغت من الكتاب الذى أبديت به للإحسان مـبسما، وجـعلته لمحاسن الثناء موسما، وجلوت فيه أبكار المفاخر وعونها، وخصصت به نكت المآثر وعيونها، وشـعشعت فيه المحاسن وروقـتها، وفتقت فيـه كمائم البدائع وشققتها، حتى أتت أزهى من الحديقة، وأبهى من ملك النعمان بين الشقيقة، يتـمنى السحـر أنْ يحلهـا، والعيـون النجل أنْ تكحلهـا، فصـارت به لأهل الأندلس ألسن مفـتخرة، وانتـشرت لمعاليـهم عظام نخرة، ورأيت فيـه فضل الأواخر على الأوائل، وجريت به أمام سحبان وائل، وملكت بسببه كل قياد، وتركت ورائى قس إياد، وكان لى فيـه أمل ثنانى أنْ يجلى، وعدانى أنْ ينص ويتلى، فطويتـه طى السجل، ولويته لى مـحيا الخـجل، وتركته كـالبدر فى السرار، وأخفيته كما خـفى فى الغمد ماضى الغرار، والخواطر تهيم به أعظم هيم، وتستمطره اسـتمطار المحل للديم، والنفوس تتشوف إليـه تشوف الضال للمرشد، والآذان تصيخ إليه إصاخة الناشد للمنشد، وأنا أجعل لقاحه حيالا، ولا أريه طيف ولا خيالا، ثم خشيت أنْ يكسو الزمان جوهره عرضا، ويتخذ الحدثان بدره عرضا، فتمحى من وجـه الزمان غرته، وتسقط عن جبين الدهر درته، ومالمح منه عنوان، ولا شيـم منه ما فيه سلوان، فتـذوب النفوس عليه كمدا، وتحشى عيـون الذكاء بعده رمدا، فرأيت أنْ أستخـرج من أخباره خبرًا يدل عليـه، دلالة اللفظ على المعنى، واللـحظ على المغنى، وينبئ عنه إنبـاء النسيم على الزهر، ويشير إليه إشارة الشاطئ إلى النهر.

ولما كان الفقـيه الأجل أبو محمّد عبـد الله بن السيد - أدام الله علوه - تاج مـفرقـه، وهلال أفقـه، ومهب نفح صـواره، ومحلى أنواره، ومـجلى أنجاده، وأغواره، وكنت قـد أحكمت نسق أخباره وسردها، وفـوفت مطرفها وبردها، وأطلقـتهـا قمـرا، وجعلتـها سـمرا، إذ هو أزخـر علمائنا بـحرا، وأوسعـهم نحرا، وأحـسنهم خواطر، وأسكبـهم مواطر، وأسـيرهم أمـثالا،

وأعدمهم مثالا، وأصدقهم لسانا، وأعـمهم إحسانا، وأرفعهم راية، وأبعدهم غاية، ومـحاسنه أعذب جمـاما، وأصفى غمـاما، وأظهر إعجـازا، وأحسن صدورا وأعـجازا، رأيت أنَّ أفـرد كتابا فى أخـباره، وأجرد ذبابـا فى إعظامه وإكباره، ليـبين به فضل من ضـمنته تصنيفى، ويعلم بأخبـاره ما أودعت فى تأليفى، ويرى أنه قطـرة من غمام، ودرة من نظام، وصـبح يدل على نهار، ونفح صدر عن حقائق وأزهار.

والله المولى العون، والكيل بالكلاءة والصون، لا رب غيره.

الفقيه الحافظ الإمام الأوحد أبو محمّـد هو عبد الله بن محمّد بن السِّيد البطليوسى، وشلب بـيضته، ومنهـا كانت حركـة أبيه ونهضـته، وفيهـا كان قـرارهم ومنها نم آسـهم وعرارهم، ونسـب إلى بطليوس، لمولده بهـا، ومن حيث كان فقد طبق الأرض علما وملأها ذكاء وفهما.

وأنا أقـول: لو أنَّ للأيام ألسنا ناطقة، وأوصـافا مـتناسقـة، تردد فنون بيانهـا، كالطيـر ترجع على أفنانها، مـا جرت إلى إنصـافه، ولا درت بعض أوصافه، ولو أنى أمددت ببيان سحـبان، وأيدت تأييد لسان حسان، وأعارنى ابن صوحـان الفصاحة، وعلمنى خـالد بن صفوان إيضاحـه، لما أعربت عن مقداره الرفـيع، ولا أغربت بما أنحره له من التعظيم والتـرفيع، فكيف بلسان قـد فل غـراره، وبنان قـد ذوى رنده وعـــراره، وخـاطر قـد ارتمى فى لجج الأخطار، ووخز بأطراف القنا الخطـار، فما تذل له عصى إحـسانه، ولا تحل النوائب عقـدة لسانه، فحـسبى أنْ أقتـصر من وصفـه على لمحة، وأعطر من عرفه بنفحة، فأقول[1]:

إنَّه ضارب قـداح العلوم ومجيلهـا، وغرة أيامنا البهـيمة وتحجـيلها لو أدركه قيس لما قضى للحلم وترا ولا شفـعا، ولو عاصره ابن العاصى لما ادعى

(١) الغنية ص ١١٤.

ضرا ولا نفعا، حلب الدهر أشطره، وتلا حروفه وأسطره، وخذم الرياسات، وعلم طرق السياسات، ونفق وكسد، ووقف وتوسد. وهو اليوم شيخ المعارف وإمامها، ومن فى يديه مقودها وزمامها، لديه تنشد ضوال الأعراب، وتوجد شوارذ اللغات والإعراب، إلى مقطع دمث، ومنزع فى النفاسة غير منتكث، وندى خرق به العوائد، وأورق فى يد الرائد وعفاف كف، حتى عن الطيف، وحكى المحرمين بالخيف، ولقد نزلت منه بالتقى الطاهر، ولقيت منه ما لقى عوف بن محلم من ابن طاهر، ورأيت نار مكارمه تتألق، وبت كأنما على النار الندى والمحلق، وله تحقيق بالعلوم الحديثة والقديمة، وتصرف فى طرقها المستقيمة، ما خرج بمعرفتها عن مضمار شرع، ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع. وتواليفه فى الشروحات وغيرها صنوف، وهى اليوم فى آذان الأيام شنوف. فمنها «المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس»، و«الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب». وكتاب «التنبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء فى اعتقاداتهم وآرائهم وسائر أغراضهم وأنحائهم» وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الموضوع ويخفيه، ويوقف على تفسيره فيه.

وقد أثبت من محاسنه التى تدور جريالا، ويسيل الحبر بقصتها نيالا، ما ينشى ويسكر، وبحمده الوسمى المبكر.

فمن ذلك[1] أنَّه حضر مع القادر بالله بن ذى النون بمجلس الناعورة بطليطلة، فى المنية المتناهية البهاء والإشراق، المباهية لزوراء العراق، التى ينفح شذاها العطر، ويكاد من الغضارة يمطر، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوتار وارتداه، وحكم العقار فى جوده ونداه، والمجلس يشرق كالشمس فى

(١) نفح الطيب ١/ ٦٤٤.

الحمل، ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل، والزهر عبق، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق، والدولاب يئن كناقة إثر حوار، أو كثكلى من حر الأوار، والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد بللته أنداؤه، والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت أمواهها، فقال - رحمه الله - يصف الحال[1]:

يا منظرا إنْ رمقت بهجته ... أذكرنى حسن جنة الخلد

تربة مسك وجو عنبر ... وغيم ند وطش ما ورد

والماء كاللازورد قد نظمت ... فيه اللآلى فواغر الأسد

كأنما جائل الحباب به ... يلعب فى حافتيه بالنرد

تراه يزهى إذا يحل به الـ ... ـقادر زهو الكعاب بالعقد

تخاله إنْ بدا به قمرا ... تما بدا فى مطالع السعد

كأنما ألبست حدائقه ... ما حاز من شيمة ومن مجد

كأنما جادها فَرَّوضها ... بوابل من يمينه رغد

لا زال فى عزة مضاعفة ... ميمم الرفد وارى الزند

وله يصف فرسا وهو مما أبدع فى التمثيل له والتشبيه، ونبه خاطره فيه أحسن تنبيه، وخلع عليه شيات لاحق والوجيه، وعمه بالمحاسن وتوج، ونسبة إلى الخاطر وأعوج:

وأقب من آل الوجيه ولاحف ... قيد العيون وغاية المتمثل

ملك النواظر والقلوب بحسنه ... فمتى ترق العين فيه تسهل

(١) نفح الطيب ج١ ص ٦٤٤.

ذو منخـــر رحب وزور ضـــيق وسـماوة خـضب وأرض ممحل
قـصـــرت له تسع وطـالت أربع وصـــفت ثلاث منـه للمـــتـــأمل
وتراه أحـيـــانا لعـــزة نفـســـه يرنو بـلا قـبل بعـيـن الأقـبل
وكـــأنمـا ســـال الـظلام بمتـنه وبدا الصـبح بوجـهـه المتـهلل
وكـأن راكـبـه على ظهـر الصـبـا من سـرعة أو فوق ظـهر الشـمأل

وله يصف فرسا للظافـر عبد الرحمن بن عبيـد الله بن ذى النون رحمه الله:

وأدهم من آل الـوجـيـه ولاحق له الليـل لون والصـبح حـجـول
تحـيـر مـاء الحـسن فـوق أديمـه فلولا التـهاب الخـصر ظل يسـيل
كـأن هـلال الفطر لاح بوجـهـه فـأعـيننـا شـوقـا إلـيـه تميل
كـأن الريـاح العـاصـفـات تقله إذا ابتـل منه مـحـزم وتلـيل
إذا الظافـر الميـمون فى مـتنه عـلا بدا الزهو فى العطفـين منه يجـول
فمـن رام تشبـيهـا له قال مـوجزا وإنْ كان وصف الحـسن منه يطول
هو الفـلك الدوار فى صـهـواته لبـدر الـدياجى مطـلع وأفـول

وما أبدع قوله فى وصف الراح، والحض على النبذ للهموم والأطراح، بمعاطاة كـئوسها، ومـوالاة تأنيسها؛ ومـعاقرة دنانهـا، واهتصار ثمار الفـتوة وأفنانها؛ والإعراض عن الأيام وأنكادها، والجرى فى مـيدان الصبوة إلى أبعد آمادها:

سل الهموم إذا نبا زمن بمدامة صفراء كالذهب[1]

مزجت فمن در على ذهب طاف ومن حبب على لهب

وكأن ساقيها يثير شذا مسك لدى الأقوام منتهب

ولله هو[2]! فقد ندب إلى المندوب، وذهب إلى مداواة القلوب، من الندوب، وإبرائها من الآلام، وإهدائها كل تحية وسلام، وإبهاجها بآصال وبُكَر، وعلاجها من هموم وفكر، فى زمن حلى عاطله، وجلى فى أحسن الصور باطله، ونفقت محالاته، وطبقت أرضه وسماءه استحالاته، فليثه كأسد[2]، وذئبه مستأسد، وأحفاثه[3] تنمر، وبغاثه قد استنسر، فلا استراحة إلاّ فى معاطاة حميا، ومؤاخاة وسيم المحيا.

وقد كان ابن عمار ذهب مذهبه، وفضضه بالإبداع وذهبه، حين دخل سرقسطة ورأى غباوة أهلها، وتكاثف جهلها، وشاهد منها من لا يعلم معنى ولا فصلا، وواصل من لا يعرف قطعا ولا وصلا، فأقبل على راحة يتعاطاها، وعكف عليها ما تعداها ولا تخطاها، حتى بلغه أنهم نقموا معاقرته للعقار، وجالت ألسنتهم فى توبيخه مجال ذى الفقار، فقال:

نقمتم على الراح أدمن شربها وقلتم فتى راح وليس فتى مجد[4]

ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى سوى من أعطى الكثير ولم يكد

فديتكم لم تفهوا السر إنما قليتكم جهدى فأبعدتم جهدى

---

(١) نفح الطيب ج١ ص ٦٤٥.

(٢) نفح الطيب ج١ ص ٦٤٦، وتحرف «فليثه أسد» فى المطبوع إلى: «فلبيبه كاسد».

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «أحفاشه». والحفاث تحدث عنه الجاحظ فى الحيوان (٤: ١٤٧) فقال: «وفى البادية حية يُقال لها الحفاث... ولها وعيد منكر ونفخ وإظهار للصولة وليس وراء ذلك شىء».

(٤) نفح الطيب ج١ ص ٦٤٦.

ودعى[1] ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب، وقرع السرور نبعه بالغرب، ولاحت نجوم أكواسه، وفاح نسيم رنده وآسه، وأبدت صدور أباريقه أسرارها، وضمت عليه المجالس أزرارها، والراح يديرها أهيف وأوطف، والأمانى تجنى وتقطف، فقال:

يا رب ليل قد هتكت حجابه بمدامة وقادة كالكوكب[2]

يسعى بها أحوى الجفون كأنها من خده ورضاب فيه الأشنب

بدران: بدر قد أمنت غروبه يسعى ببدر جانح للمغرب

فإذا نعمت برشف بدر غارب فانعم برشفة طالع لم يغرب

حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرة ربرب فى مشرب

والليل منحفز يطير غرابه والصبح يطرده بباز أشهب

وقال يمدح بعض الأعيان، وهى قصيدة اشتملت على المحاسن اشتمال الليل، وانفردت بالمحاسن انفراد سهيل، ودرت فيها أخلاف الإبداع، وزرت عليها جيوب الانقطاع، وأفصح لسان الإحسان، وسح عليها عنان الافتنان، فجاءت بالإغراب محفوفة، ولاحت كالخريدة المزفوفة.

وسمعت السيئ الاعتقاد، الغبى الفهم والانتقاد، الكافر الملحد، النافر لمن يعظم الله ويوحد، الذى ما نطق متشرعا، ولا رمق متورعا، ولا أقر بباريه، ولا قر عن جريه فى ميدان الغى وتباريه، يدعى مدحه ويقول: إنَّه إليه بعث نفحها، وإنَّه الذى افتض عذرتها، وقطف زهرتها. وحاشا لقائلها

(١) نفح الطيب ج١ ص ٦٤٦.

(٢) نفح الطيب ج١ ص ٦٤٦.

أنْ يمدح بهـا المذموم وينضح بكوثرها نفح سـموم، أو يشـرف بها وضيـعا، ويرضع ثديها من غدا للؤم رضيعا وهى:

أمـــا إنَّه لولا الدمـــوع الهـــوامع ... لما بان مـنى مـــا تجن الأضـــالع
وكم هتكت ستر الهـوى أعين المها ... وهاجت لى الشوق الـديار البلاقع
خليـلى مـالـى كلمـــا لاح بارق ... تلظى الحـشـا وارفض منى المدامع
هل الأفق فى جنـبىّ بالبـرق لامع ... أم المزن فى جـــفنى بالـودق هامع
ففى القلب من نار الشجون مصايف ... وفى الخـد من ماء الشـئون مـرابع
وما هاج هذا الشـوق إلاّ مهـفهف ... هو البـدر أو بدر الدجى منه طالع
إذا غـاب يومـا فالقلـوب مغـارب ... وإنْ لاح يومـا فـالجـيـوب مطالع
يضـــرج خـــديه الحـيـــاء كـــأنما ... بخـديه من فـتك الجفـون وقـائع
رمـانى عن قـوس المحـاجـر لحظه ... بسهم غـدا من مهـجتى وهو وادع
ومـا زلت من ألحـاظه مـتـوقـيـا ... ولكـنه مـــــا حـم لا بد واقـع
يرق فـــتـــــور اللحظ منـه كـــأنه ... إلى قلبـه من قسـوة الهجر شـافع
كـمـا رق بالآداب طبع مـحـمّـد ... فحـاكت لمى الأحباب مـنه الطبائع
رخـيم حواشى الطرف حلو كـأنما ... ســجـايـا أيام الســرور الرواجع

***

أبا بكر اسـتـوفيت زهر مـحـاسن ... تنافـسـهـا زهر الـنجـوم الطوالع
قـدحت زنادا من ذكـائك لم يزل ... ينيـر فـتعـشى البـارقـات اللوامع

وما ذلك عن نيل لذيك رجوته فيصدق ظن أو يكذب طامع
ولا أنا ممن يرتضى الشعر خطة فتجذبه نحو الملوك المطالع
ولكن قلبا بين جنبى قد غدا يجاذبنى فيك الهوى وينازع
طوى لك من محض الوداد كمائنًا تبدت لها فوق اللسان طلائع
أأزعم فى نظم البديع ولم يزل لك السبق فيه والورى لك تابع
وأى مقال لى وقولك سائر وأى بديع لى ومنك البدائع

وقال يتغزل، وتصرف فيه تصرف غيلان مى، ووصف كل حواء وحى، وذكر العشق، وارتاد الإبداع، حتى عدا به مصره، فأجاد معانيه، وأشاد مبانيه:

تأوبه من همه ما تأوبا فبات على جمر الأسى متقلبا
مرت مزن عينيه غداة تحملوا عواصف ريح الشوق حتى تصببا
دموع هتكن الستر عن مضمر الجوى وأبدين من سر الهوى ما تغيبا
خليلى مالى كلما لاح بارق تذكرت برقا بالعقيق وزينبا
أؤنس بالنائين نوما مشردا وأطمع بالثاوين قلبا معذبا
ومن لى برد الخل إذ جدت النوى به وبوصل الحبل أنْ يتقضبا
أفى كل حين أمترى غرب مقلة أبى الوجد إلاّ أنْ تجود فتغربا
إذا عن لى ظبى بوجرة شادن تذكرت من عنى الفؤاد وعذبا
وأرتاح للأرواح من نحو أرضها وتثنى عنان للصبا نفحة الصبا

ولولا التهاب الشـوق بين جوانحى لأمـرع خـدى بالدمـوع وأعشـبـا
ألا قـاتل الله الهوى كـيف قـادنى إلى مصرعى طوعا وقد كنت مصعبا
ومـا كنت أخشى أنْ أبـيت معـذبا بعذب رضاب من حمى الثغر أشنبا
وخـــذ ألاقى دون شم رياضـــه من اللحظ هنديا وللصـدغ عقـربا
أجـــدك لم تبـــصـــر تـألق بارق يجـد نشـاطا فى ذرى الأفق أهدبا
إذا ما بـدا فى الجو أحـمر ساطـعا حـسـبت الظلام آبنوسـا مـذهبـا
كـأن ريـاض الحُـوّ غب سـمـــائه تردين وشى الـعـبـقـرى المخـلـبـا
كـأن الشـقـيق والـفـجـر سـاطع خـدود زهاها الحـسن أنْ تـتنقـبـا
تمتع بـريعـــان الشـبـــاب وظله فـلا بد يـومـا أنْ يبـينا ويـذهبـا
فمـا العيش إلاّ أنْ تروح وتغـتدى مـحـبا براه سـقـمـه أو مـحبـبـا

***

وكتب إلى الكاتب أبى الحـسن راشد يستـدعيه إلى مـجلس قد لاحت شموس مدامه، وارتاحت نفوس ندامه، وتأودت تأود الغصون قدود خدامه:

عندى مـشكود من الخـمـر مـبق
فـيـه مـنى مـصطبح ومـغـتـبق
يحكى شذا المسـك إذا المسك فتق
كـــأنه مـن خلقـك الحلو خـلق
كـأنمـا كـئـوسـه تحت الغـسق

فى راحـــة الســاقى نجـــوم تأتلق

تخـالـهـا وهى تلظى كـــالحـرق

أحـشـاء صب مـلئت من الحـرق

تـرى لدى المـزج إذا المـاء اندفـق

فـيـها حـبـابا لاح كـالدر النسق

وأنت أنسـى والمفـــدى بالحـــدق

فـاطلع طلوع الـقـمـر التم اتسق

فى يـومنا هذا إذا الـظهـــر نـطق

يا راشـــدا إذا دجى الغى غـــسق

ومـاجدا حـاز فى السـبق السـبق

لله مـعنى طابـق اسـمـا لك حق

توافـــقـــا فـيك إذا الاسـم اتفق

فراجعه راشد:

لبـيك من داع إلى العيش الغـدق

فى سجـسج من ظله غض الورق

ندير صـفو الراح صـرفا قد عـتق

وشـبـهـهـا لونا وطعـمـا وعـبق

وكـان يـجلى فى مـــلاء من فلق

obeikandi.com

تحسده من حسنه بيض السرق

ثم كساه السهد ثوبا من شفق

بل من إياة الشمس من غير رنق

كأنه من خد من أهوى استرق

كأنه بريقه العذب فتق

فجاء يشفى من جوى ومن حرق

أحلى من الأمن أتى بعد الفرق

رضيته مصطحبا ومغتبق

على رياض أدب ذات أنق

أجين ما أهوى وأذهبن القلق

عند فتى ندب عبيرى الخلق

مؤتزر بالمكرمات منتطق

إنْ قال قدسدت الورى قيل صدق

***

وقال يصف مجلس أنس وتصرف فى وصفه سقاته، وإقبال الصبح لميقاته، ومدح الراح بأحسن أسمائها، وطلوع الفجر هازما لدجى ليلتهم وظلمائها، وإيقاظ أصحابه من نومهم، وترغيبه لهم فى اصطباح يومهم:

صاح نبه كل صاح يصطبح فضلة الزق الذى كان اغتبق

قهوة تحكى الذى فى أضلعى من جوى الحب ومن لفح الحرق

obeikandl.com

بيـــدى ســـاق تـــرى فى طوقـــه بدر تم فـــى تجلـــى فى غـــــــسق
خلتـــهـــا إذ غـــربت فى ثغـــره شـمـسـهـا أبقـت بخـديه شـفق
أفـــرغ الماء علـيـــهـــا فـــحكت ذائـــب الإبـــريـــز أو ذوب ورق
إنْ مـسـك الليل قـــد أعـقـــبـه من سنى الإصـبـاح كافـور عـبق
فكأن الفـــجـر عـــين تفـــجـرت وكـــــأن الـليل زنجـى غـــــرق
وكـــــأن الأنجم الـزهر مـــــهـــــا راعـه السرحـان صبـحا فـافتـرق

***

وقال فى الزهد، وهو غـرض قد أكثـر القول فـيه، والضراعـة لباريه؛ وراش أنواعه وبرى، وجلب فنونه ومرى؛ وذلك مما يدل على ورعه، وصفاء منهله فى التقى ومشرعه؛ فكثيرا مـا يعلن به ويسر، ويطلع على لسانه متمما ولا يَسْتسر(١):

إلهى إنى شـــاكـــر لك حـامـــد وإنى لسـاع فـى رضـاك وجـاهد
وإنك مـهـمـا زلت النعل بالفـتى على العـائد التواب بالعـفو عـائد
تبـاعـدت مـجـدا وادنيت تعطفـا وحلمـا فـأنت المـدنى المتـبـاعـد
ومـالى على شىء سـواك مـعـول إذا دهمـتنى المعـضـلات الشـدائد
أغـيـرك أدعـو لى إلهـا وخـالقـا وقـد أوضح البـرهان أنك واحـد
وقـدما دعـا قـوم سـواك فلم يقم على ذاك بـرهان ولا لاح شـــاهد
وبالفلك الدوار قـد ضل مـعـشـر وللنيـــرات السـبع داع وســاجـد
وللعـقل عـبـاد وللنفس شـيـعـة وكلـهم عن منـهج الحق حـــائد

(١) قلائد العقيان، ص ٧١٧.

وكيف يضل القصد ذو العلم والنهى ونهج الهدى من كان نحوك قاصد
وهل فى التى طاعوا لها وتعبدوا لأمرك عاص أو لحقك جاحد
وهل يوجد المعلول من غير علة إذا صح فكر أو رأى الرشد راشد
وهل غبت عن شىء فينكر منكر وجودك أم لم تبد منك الشواهد
وفى كل معبود سواك دلائل من الصنع تنبى أنَّه لك عابد
وكل وجود عن وجودك كائن فواجد أصناف الورى لك واجد
سرت منك فيها وحدة لو منعتها لأصبحت الأشياء وهى بوائد
ومولك فى خلق الورى من دلائل يراها الفتى فى نفسه ويشاهد
كفى مكذبا للجاحدين نفوسهم تخاصم إنْ أنكروا وتعاند

❊❊❊

وقال يمدح الظافر عبد الرحمن بن عبيد الله بن ذى النون، وهو مدح طابق الممدوح، ووصف شاكله كالروض والغمام السفوح؛ فنظم الدر بأبهى جيد، وقلد الفخر أعلى مجيد؛ ووضع العلق فى يدى مميزه، وأجرى الجواد فى ميدان مجوزه؛ لم يحمل إلى غير موضع نفاق، ولا شام به مخيلة ذات إخفاق؛ فإنه كان أندى من الغيث، وأمضى من الليث؛ وأذكى من الحسام، وأبهى من البدر ليلة التمام؛ حتى خاض هَوْلاً لم يَسْرِ فيه إلى صبح، وسلك شعبا لم ينش منه بريح؛ فصافح المنايا، وطلع له غير معهود الثنايا؛ والشعر قوله:

لعلكم بعد التجنب والهجر تديلون من بعد وتشفون من ضر

فـــإن الذى غـادرتم بيـن أضلعى يزيد مـــر الزمـان ويَـسْـتَـشْـرِى
ولم تنبكم عنى الـنوى غيـر أنكم رحلتم من الجـفن القـريح إلى الفكر
ومن عـــجب أنى أســـائل عـنكم ومنزلكـم بين الجـوانح والـصـدر
وأسـتـعطف الأيام فـيـكم لعلهـا تعيـد الليالى السابقات كـما أدرى
وأطمع منهـا فى الوصال ولم أزل عليـمـا بما يؤثـر من شـيم الغـدر
ويوحـــشنـى الزمـــان لنأيـكم وإنْ كنت مـأنوس الجوانح بالذكـر
ولم أنس إذ صدت كما صد شادن غـرير من الربعى أوجس من ذعـر
تميس كما ماس القضيب على القنا وترنو كما أغضى الشريف من السكر
وما زلت صـبا بالغوانى تصـيدنى ذوات الثنايا الغـر والأوجـه الزهر
وعندى أحـــشـاء ملئن صـــبـابة كألحـاط أجفـان ملئن من السـحر
ولوعـة وجـد مـا تـفـيق وظمـأة لأشنب معسـول اللمى طيب النشر
وكم فى كناس السمـهرية من رشا أغن يقـيم العذر فى الخلع للعـذر
وأهيف يثـنيـه النسـيم إذا جـرى فلو شاء من لين تخـتم فى الخصر
وسـاحـرة الألفـاظ لو أنهـا دعت بنغـمـتهـا مـيتـا للبى من الـقبـر
حسرت القناع الستر فيها ولم يكن يطيب النوى يومـا لمن دان بالستـر
ولله ليل بـاللوى أبعـــد الجـــوى وقرب نحـرا من مشـوق إلى نحر
فما شئت من شكوى أرق من الهوى وما شئت من نجـوى ألذ من الخمر
سرت لم تمس الطيب عجـبا بحسنها وقد أفعمت عرض البسيطة بالعطر

فـقلت: عبـيد الله أو نجله سـرى فـذكـرنى دارين أو بت بالشـحـر
كأن ضيـاء الصبح فى الليل إذ سرى بصيرة إيمان سـرت فى عمى كفر
كأن مهـا فى الأفق ريعت وقد بدا لها ذنوب السرحان من وضح الفجر
كـأن سنى الشـمـس المنيـرة إذ بدا كسـا ورق الإصباح ذَوْبا من التـبر
وإلاّ فـوجـه الظافـــر الملك انجلى فجلى ظلام النقع فى الجـحفل المجر
عـجـــبت لأيام تداعت خطبـــهـا لتثلم من غـربى وتقدح فى وفرى
ولم تدر أنى فى حمى الظافـر الرضا أرد العدى عنى بصمصـامتى عمرو
حلـلت جنابـا منه مَـــدَّ ظـلاله على وأعـطانى أمـــانا مـن الدهر
جناب بكت فـيـه غـمـائم جـوده فأضـحكن روض المجد عن زهر الشكر
وكم نلت مذ أصـبحت ألثم كـفه بيـمناه من يمن ويسـراه من يسـر
لدى ملك مـا لاح ضـوء جـبـينه بجنح الدجى إلاّ كفـى مطلع البدر
ومـتـقـد الآراء جـــال فى الوغى بخاطره أغـنى عن البيض والسـمر
ولولا اضطرام البأس فـيه غدا القنا براحـتـه يهـتـــز بالورق الخـضـر
أرى عابد الرحمن رحمة من قست عليـه الليالى أمـن من ريع بالفقـر
وكـعبـة آمال كـثيـرا حـجيـجهـا لهـا حـرم فيـه مـشـاعر للشـعـر
له من حـجـاه بالسـمـاحـة آمـر ومن حلمـه ناه عن اللغو والهـجر
فـــتى لم يشـــمـر قـط إلاّ عنا له عـداه وساق الحـرب مسـبلة الأزر
ولم يعـتـرك بخـل بميـدان عـدله وجـدواه إلاّ فـاز جـدواه بالنصـر

أبا عـامر لا زلت للمـجـد عامـرا فإنك وسطى العقـد فى عنق الفخر
وقـمت العـدا عنى برأفـة مـاجـد وغمـر نوال سر إذ سـاء ذا الغـمر
وأوسعت نعمى ضقـت ذرعا بحملها فإن خففت عمرى لقد أثقلت ظهرى
ولما ارتقت بى فى سـمائك همـتى غذا أخـمصى فوق النعـائم والنسر
فحييت شمس الملك فى فلك العلا وشِمْتُ سـحاب الجود فى بارق البـشر
أيرجـو ضلالا أنْ ينـاويك حاسـد وقد حزت خصل السبق وهو على الإثر
وأرسى عـبيـد الله بيتك فى العـلا وطنبـه بين السـمـاكـين والغـفـر
وأصبـحت كالمـأمون تقفـو سبـيله كـأنك موسى تقـتـفى أثر الخضـر
وما علت صـبرا حيـن قلدك العلا وجـاء بأمـر من بدائعـه أمـرى
فلله مـا شـادوا وشدت من العـلا ولله ما حـازوا وما حـزت من ذكر
نظمت شتيت الملـك بالعدل والتقى وقمت بـحق الله فى السر والجـهر
وجـاءك صـوم إثر فطر قـضيـتـه بحظين من سعـد جزيل ومن أجر
وأدبر سـقم عنك بشـر جـسـمـه بإقـبال نعـمى واتصـال من العمـر
سـيـمـلا شكرى كل قـطر تحله بنشـر ثناء عنك أذكى مـن العطر
وتبـقى لكم بين الضلـوع محبـة ألاقى بها الرحمن فى مـوقف الحشر

* * *

وكتب إلى ذى الوزارتين أبى عيسى بن لبون:

قم نـصطبح مـن قـهـوة بـكر حـتى نرى صـرعى من الـسكر
أنف تـنسـاهـا الورى حـتى لم تجـر فـى بال ولا ذكـر

فـتـرى الدنان ومـا حـوت منهـا كـجـوانح طـويت على فـكر
نفـحت فـقلت المسك أو مـا قـد أحـيـا أبو عـيـسى من الـذكـر
لا شيء يحـكى طيـبـهـا إلاّ شـيـم عـذاب منه أو شـكرى
مـا زلت أخـبـر من مـحـاسنه قـدمـا بعـرف ليس بالـنكر
وأحن نـحـو لقـائك طـربا كـالـطيـر إذ جنت إلـى وكـر
فـالآن شـاهدت الذى يـحكى ولقـيت فـيـه الفـضل لـلشكر

وكان أبو عـيسى ممن رأس ومـا شف، ووكف جوده ومـا كف، وأعاد سوق البدائع نافقة، ورفع الآمال راية مـن الندى خافقة، وأوردهم منها جوده معينا، وزف لهم من مبراته أبكار وعونا، فلمـا بلغه قوله هذا وسمعه استنبله واستـبدعـه؛ وأحضره إلـى مجلس نام عنه الدهر وغـفل، وقام لفـرط أنسه واحتـفل؛ قد بـانت صروفه، ودنـت فى الزائرين قطوفه؛ وقـال هلم بنا إلى الاجتماع بمذهبك، والاستماع بما شئته ببراعة أدبك؛ فأقاموا يعملون كأسهم، ويصلون إيناسهم؛ وباتوا ليلهم مـا طرقهم نوم، ولا عداهم عن طيب اللذات سوم.

ودخل سـرقسطة أيام المسـتعـين بالله وهى جنة الدنيا، وفـتنة المحـيا؛ ومنتـهى الوصف وموقف الـسرور والقـصف؛ ملك نمير البشـاشة، كـثيـر الهشـاشة؛ وملك بهج الفنـاء، أرج الأرجاء؛ يروق المجتلى، ويفـوق النجم المعتلى؛ وحضرة منسابة الماء، منجابـة السماء؛ يبسم زهرها، وينساب نهرها؛ وتتفـتح خمـائلها، وتتـضوع صبـاها وشمـائلها؛ والحوادث لا تعـترضـها، والكوارث لا تقـترضـها[1]؛ ونازلهـا من عرس إلى موسـم، وآملها مـتصل

(١) تقترضها: تنال منها.

بالأمانى ومتسم؛ فنزل منها فى مثل الخورنق والسدير، وتصرف فيها بين روضة وغدير؛ فلم يخف على المستعين اختلاله، ولم تخف لديه خلاله؛ فذكره معلمًا به ومعرفًا، وأحضره منوها له ومشرفًا؛ وقد كان فر من ابن رزين، فرار السرور من نفس الحزين؛ وخلص من اعتقاله، خلوص السيف من صقاله؛ فقال يمدحه[1]:

هم سلبونى حسن صبرى إذ بانوا ... بأقمار أطواق مطالعها بانُ
لئن غادرونى باللوى إنَّ مهجتى ... مسايرة أظعانهم حيثما كانوا
سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم ... ينازعها مزن من الدمع هتان
أأحبابنا هل ذلك العهد راجع ... وهل لى عندكم آخر الدهر سلوان
ولى مقلة عبرى وبين جوانحى ... فؤاد إلى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم ... وحفت بنا من معضل الخطب ألوان
أَنَاخَتْ بنا فى أرض شَنْتِ مَرِيَّةٍ ... هواجس ظَنٍّ خُنَّ والظن خوان
وشمنا بروقا للمواعيد أتعبت ... نواظرها دهرًا، ولم يهم هتان
فسرنا وما نلوى على متعذر ... إذا وطن أقصاك آوتك أوطان
ولا زاد إلاّ ما انتشته من الصبا ... أنوف وحازته من الماء أجفان
رحلنا سوام الحمد عنها لغيرها ... فلا ماؤها صَدَّا[2] ولا النبت سعدان
إلى ملك حاباه بالمجد يوسف ... وشاد له البيت الرفيع سليمان
إلى مستعين بالإله مؤيد ... له النصر حزب والمقادير أعوان

(١) نفح الطيب ج١ ص ٦٤٧.

(٢) فى الاستدراكات والتصويبات هنا، أن فى المطبوع: «صَدَّاً» هكذا بألف مقصورة، والصواب أنه ممدود هكذا «صداء» قلت: ما فى المطبوع هو الصواب وما فى التصويبات هو الخطأ والبحر من الطويل، وعلى رواية الاستدراكات ينكسر الوزن، وَقَدْ وَرَدَ على الصواب فى النفح.

جـــفـتنا بلا جـــرم كـأن مـــودة ثنى نحـــوها منـهـا الأعنـة شنآن
ولو لم تفد منا سوى الشعر وحده لحق لنـا بر عليـــه وإحـــســـان
فكيف ولم نجعل بها الشـعر مكسبا فيـوجب للمكدى جفاء وحـرمان
ولا نحن ممن يرتضى الشـعر خطة وإنْ قصـرت عن شأونا فيه أعـيان
ومن أوهمـــتـه غـيـــر ذاك ظنونه فـثم مـجـال لـلـمـقـال ومـيـدان
خليـلى من يعـــدى علـى زمن له إذا ما قـضى حيف علـى وعدوان
وهل رِىءَ من قـبلى غريق مـدامع يفـيض بعـينيـه الحيـا وهو حـران
وهل طرفت عـين لمجـد ولم تكن لهـــا مـقلة من آل هود وإنـسـان
فوجه ابن هود كلما أعرض الورى صحـيفـة إقبـال لها البشـر عنوان
فتى المجـد فى بُرْدَيْه بدر وضـيغم وبحر وقدس ذو الهـضاب وثهلان
من النفـــر الشم الـذى أكـفـــهم غـيـــوث ولكن الخـواطر نـيـران
ليوث شرى ما زال منهم لدى الوغى هزير بيـمناه من السـحـر ثعـبـان
وهل فوق مـا فد شاد مقـتدر لهم ومـــؤتمن بالله لـقـيـــاه إيمـــان
ألا ليس فخرى فى الورى غـير فخرهم وإلاّ فـإنَّ الفـخـــر زور وبهـتـان
فـيا مـستـعـينا مستـعانًا لمن نبـا به وطن يومـا وعـــضـتـه أزمـان
كسـوتك من نظمى قـلائد مفـخر يبـاهى بهـا جيـد المعـالى ويزدان
وإنْ قـصـرت عمـا لبـست فـربما تجـاور در فـى النظام ومـــرجـان
مـعان حكت غنج الحـسان كـأننى بهن حـبـيب أو بطليـوس بغـدان

إذا غـرست كـفـاك غـرس مكارم بأرضى أجنتك الـثنا منه أغـصـان

❊ ❊ ❊

وكان عند وصوله إلى ابن رزين قد رفـعه أرفع محل، وأنزله منزلة أهل العقد والحل؛ وأطلعه فى سمائه، وأقطعـه ما شاء من نعمائه، وأورده أصفى مناهل مـائه، وأحضـره مع خواص ندمـائه؛ وكـانت دولته مـوقف البيـان، ومقذف الأعـيان؛ ومحصب جـمار الآمال، وأعذب مـوارد الأجمال؛ لو لا سطوته الباطشة، ونكبـاته البارية لسهام الرزء الرائشة؛ فقلمـا سلم منها مفاد الأموال، ولا أحمد عـقباه معه صاحب ولا وال؛ فأحمـد هو أوّل أمره معه، واستـحسن مـذهبه فى جانبـه ومنزعه؛ ولم يدر أنَّ بعـد ذلك الشهـد شرب علقم، وأنَّ السم تحت لسان ذلك الأرقم؛ فقال رحمه الله يمدحه:

عسى عـطفة ممن جـفانى يعـيدها فـتقـضى لبـاناتى ويدنو بعـيـدها
فـقـد تعتـب الأيام بعـد عتـابهـا ويمحى بوصل الغـانيات صدودها
وكم للصبا عندى يد لست جاحدا لهـا إنَّ كفـران الأيادى جحـودها
ليـالى أسـرى فى لـيـالى غـدائر كـواكـبهـا حَلْىُ المهـا وخـدودها
وأهصـر أغـصـان القـدود فـتنثنى علىّ بـرمـان الـنحـور نهـودها
فللـه ليل بت فـيـه كـأننى بوجـرة أغـتـال المهـا وأصـيـدها
أبيح ثغـورا كـالثـغـور ودونهـا أسنـة ألحـاظ قناهـا قـدودها
تشـابه منهـا مـا حـوته مـبـاسم عـذاب ولبـات يروق فـريدها
فإن تك مـن تلك العقود ثـغورها وإلاّ فـمن تلك الثـغور عـقـودها

وحـمـراء حلاها المزاج فـخلتـهـا عـقيلة خـدر زين بالبـدر جيـدها
بدت فى دلاص من حباب وأشرعت سنان انسكاب والـكئـوس جنودها
فـمـا برحت حتـى كأن شـروبهـا من السكر صرعى أنعستها حدودها
ترى شـربهـا جنـح الظلام كـأنهم بهـا مـصطلو نار يشـب وقـودها
إذا أنكحـوا من فـضـة الماء تبـرها أتى اللؤلـؤ المكنون وهو وليـدها
كما أنكحوا البدر استقامت سعوده هذيلا من الشمس استقامت سعودها
فجـاءا بعبـد المَلْكِ للمُلْكِ كوكـبا ليحـمى سمـاء المجد ممن يكيـدها
رمى جنة الأعـداء لما سـمـوا لهـا بشهب القنا حتى استشاط مريدها
حلفت بعليـا عابد الملك ذى اللـها وأيد له كـالقطر جم عـديدها
لئن كان قـد أبلت هذيلا يد الردى فـإن عـلاه ليس يبلى جـديدها
وإنْ رفـعت كـفـاه قـبة مـفـخـر فـإنَّ قنـا عـبـد الملك عـمـودها
فتى أحرز العليـا، وحاز مدى الندى فـمـا إنْ له من رتبـة يستـزيدها
سـرى بارق من بشـره غيـر خلب إلى أرض آمـالى فـأورق عـودها
وبوأنى مـن مـجـده فى مـكانة سعـود النجوم الزاهرات صعـيدها
فـيـأيهـا المولى الذى أنا عـبـده وقدمـا رجا طول الموالـى عبيـدها
أصخ نحو حر الشعر من عبد أنعم بدائعـه مـا زال منـك يفـيـدها
قـوافً تروق السـامـعـين كـأنما تحلى سـجاياك الحـسان قـصيـدها
حـبـتك العُلا حَـقّـا بمثنى رياسـة بهـا اعتـرفت ساداتهـا ومسـودها
ولولاك أضحت أرض شـنت مريةٍ مناخ خـطوب لا ينادى ولـيـدها

وما زلت يقظان الجفون لرعيها إذا أعين الأملاك طال هجودها
تكف الأذى عن أهلها وتحوطها وتبدى الأيادى فيهم وتعيدها

❊ ❊ ❊

وقال يرثى الوزير الأجل، أبا عبد الملك بن عبد العزيز، وبنو عبد العزيز بهذا الشرق، هم كانوا بدور غياهبه، وصدور مراتبه، وبحور مواهبه؛ نظمت فيهم المدائح، وعظمت منهم المنائح، ونفقت عندهم أقدار الأعلام، وتدفقت لديهم بحار الكلام؛ وخدمتهم الدنيا وبنوها، وأمنتهم الأيام ولم يأمنوها؛ فرقت جموعهم، وأخلت ربوعهم، ونثرت سلكهم، ومزقت ملكهم؛ وهدت مشيد بنائهم، واحتلت الحوادث فى فنائهم؛ وبقى أبو عبد الملك هذا آخرهم، فأحيا مفاخرهم؛ وكان بدر الأفق وشمسه، وروح هذا القطر ونفسه؛ أبدى لذلك السنى لمعًا، وأعاد من تلك العلا جمعًا؛ إلى أنْ دب إليه الحمام واستسر بدره بعد التمام؛ والقصيدة:

فؤادى قريح قد جفاه اصطباره ودمعى أبت إلاّ انسكابا غزاره
يسر الفتى بالعيش وهو مبيده ويغتر بالدنيا وما هى داره
وفى عبر الأيام للمرء واعظ إذا صح فيها فكره واعتباره
فلا تحسبن يا غافل الدهر صامتًا فأفصح شىء ليله ونهاره
أصخ لمناجات الزمان فإنه سيغنيك عن جهر المقال سراره
أدار على الماضين كأسًا فكلهم أبيحت مغانيه وأقوت دياره
ولم يحمهم من أنْ يسقوا بكأسهم تناوش أطراف القنا واشتجاره

وغـالت أبا عـبد المليـك صروفـه وقـد كـان دهرًا لا يـبـاح ذمـاره
فأصبـح مجفورًا وقـد كان واصلا وأمـسى قـصـيـا وهو دان مـزاره
ولم أنس إذ أودى الحـمام بـنفسـه فلـم يبق إلاّ فـــعـله وادكـــاره
إذا رقأت عـينى استـهلت شئـونها لمأتم حـــزن قـــد أرن صـــواره
تجـاوب هـذى تلك عند بكائـهـا كتـرجيع شول حين حنت عـشاره
كأن لم يكن كـالمزن يرهب صعـقه عـدو ويرجى فى المحـول انهمـاره
ودوحـــة عـزٍ يـسـتـظل بظلهـــا وروضًـــا من الآداب تجنى ثمـــاره
أمـا وعـلى مـروان إنَّ مـصـــابه أثار أسى تـذكى على القـلب ناره
فـلا شـرب إلاّ قد تكدر صـفـوه ولا نوم إلاّ قـــد تجـــافى غـــراره
فـأى حيًـا للفضل أجلى غـمامـه ونظم الـعليـــاء حـان انـتـشـاره
خوى المجد من مروان وانهد طوده وجـد بجـــد المكرمـات عـــثـاره
وما خلـت أن الصبح يشـرق بعده لعيـن وأَنَّ الروض يبقى اخـضراره
فـيـا طـود عـز زلزل الأرض هده وبدر عـــــلا راع الأنام انـكداره
هنيـئـا للحـد ضم شِلْوك أنْ غـدا عـميـد الندى والمجـد فـيه قـراره
ولم أر درًا قط أصـــدافـه الثـــرى ولا بدر ثم فى الـتـراب مـــغـاره
فـيـا بنى عبـد العـزيز وإنْ خـلا من المجـــد مـــغناه وهد مـناره
فـفيـكم لهذا الصـدع آس وجـابر وإنْ كـان صعـبًـا أسـوه وانجبـاره
لكم شـرف أرسى قـواعـد بيـتـه أبو بكـر الســرى إليـكم نجـاره

obeikandl.com

أجل وزيـر عطر الأرض ذكـــــره وأخـجل زهـر النيـرات فـــخـاره
فلو كـان للعليـاء جـيد ومـعـصم لأصـبح مـنكم عـقـــده وسـواره

❊ ❊ ❊

ومما يستغـرب له ويستبدع، ويشاد بذكره ويسـمع، ويعد مما ابتكر معناه واخترع؛ قوله فى وصف طول الليل عليه، كابد منه ما عظم لديه.

ترى ليلنا شـابت نواصـيـه كـبـرةً كما شـبت أم فى الجو روض بهارِ
كأن الليالى السـبع فى الأفق جمعت ولا فـصل فـيـهـا بينهـــا لنهـارِ

❊ ❊ ❊

وحضر عند الظافر عبد الرحمن بن عبيد الله بن ذى النون، رحمه الله، مجلسًا رفـعت فيه المنى لوائها، وخلعت عليه الشـمس أضواءها، وزفت إليه المسرات أبكارها، وفارقت إليه الطير أوكارها؛ فقال يصفه[1]:

ومـــــجلس جـم الملاهـى أزهرا
ألذ فى الأجـفـان من طعم الكرى
لم تـر عـــينـى مـــثلـه ولا ترى
أنفـس فى نـفس وأبـهى مـنظـرا
إذا تردى وشـــيـــــه المصـــورا
من حلوك صنعـاء وحولك عبـقرا
ونسج قـــرقـوب ونسج تســـتـرا

(١) نفح الطيب ج١ ص ٦٥٠.

خلت الـربيع الطلق فـيـــه نورا

كـــأنما الإبريق حـــين قـــرقـــرا

قـد أم لثم الكـاس حـين فـغـرا

وحـشـــيـة ظلت تنـاغى جـؤذرا

ترضـــــعـــه الدر ويرنـو حـــذرا

كـأنمـا مج عـقـيـــقًـا أحـــمـرا

أوفت من ريـاه مـــسكًـا أذفـــرا

أو عـابد الـرحـمن يومًـــا ذكـرا

فنم مـــــسكًا ذكـــــره وعنبـــــرا

الظافـــر الملـك الذى من ظفـــرا

بقـــربه نـال العـــلاء الأكـــبـــرا

لو أنَّ كـسـرى راءه أو قـيـصـرا

هلـل إكـــبـــــارًا له وكـــــبـــــرا

تبـدى سـمـاء الملـك منه قـمـرا

إذا حـجـاب المجـد عـنه سـفـرا

يأيهـــا المـنضى المطايـا بالســـرى

تبـغى غـمـام المـكرمـات الممطرا

obeikandi.com

وقال رحمه الله:

يغــلو لســانى فيكم وما أفك
فاهزز به غضبًا إذا هــز فتــك
قائـــمه قلبــى والغـــم الحـنك

***

وقال يتغــزل أيام جرى فى ميدان الصبــا متهافتًا وأبدى له الجــوى نفسًا خــافتًــا؛ وهو من أبدع أنواع الاستــعطاف، وأحــسن من النور عند القطاف؛ خضع فيه لمحبوبه وذل، وهان له وابتذل؛ ورضى بما سامه من العذاب، وبذل نفسه فى رشفة من ثناياه العِذاب؛ وتــشكى من جوره وحيفه، وبكى حتى من اجــتناب طيفــه؛ واستــدعى رضاه، وخلــع ثوب التناسك ونضاه؛ ونحــا فى استلطافه أرق منحى، وتصام عن قــول من عذل ولحى؛ وهذا غرض من كواه الغرام، وسبيل من رام من الوصال ما رام؛ فــما مع الهوى عز ولا صبر، وما هو إلاّ ذل أو قبر.

والقطعة:

أبا عــامــرٍ أنت الحــبــيب إلــى قلبى وإنْ كنت دهرًا من عتــابك فى حربِ
أتعــرض حــتى بالخــيــال لدى الكرى وتبــخل حتى بالســلام مع الركب
كـــأنى أخــو ذنبٍ يــجــازى بذنبـــه ومــا كان لى غــيــر المودة من ذنبِ
فــيا ســاخطًا هل من رجوع إلى الرضــا ويا نازحًا هل من سبيل إلى القرب
ويا جنة الفردوس هل ينقع الصدى[1] بجريالك المختــوم أو مائك العذبِ

(١) تحرف فى سائر الأصول إلى: «يقطع العدا».

ويا بـائنًا بـان العـــزاء ببـــينه فأصبحت مسلوب العزيمة والقلبِ
أذقنى بالعـتبى جنى النحل منعـمًا فإنك قد جرعـتنى الصاب بالعتبِ
وكنت أرى الهجـران أعظم حادثٍ فقد صار عند البين من أصغر الخطب
أتتـــركـنى رهنًا بـأيدى حـــوادث غدوت لهـا نهبا ومـا كنت بالنهب
سأجـعل عيـدا يوم عودك يغـتدى مـحيـاك فـيه قـبلة الهـائم الصب
أقـيم لواء الوصل فى حلة الصبـا به وأضـحـى بالصـبـــابة والكرب
لك القلب مـا فـيه لغـيـرك منزل منحـتكه فـانزله بالسـهل والرحب

***

وقال شاكيا مثل هذه الشكوى، مخبرا بما يلقاه من البلوى:

خليلـى هل تقـــضى لبـــانة هائم أم الوجـد والتـبـريح ضـربة لازم
فـإنى بما ألقى من الوجـد مـغـرم كـــسـال قلبى بـائح مـثل كـــاتم
ولى عـبـرات يستـهل غـمـامهـا بخـدى إذا لاحت بـروق المبـاسم
كـفى حـــزنًا إنى أذوب صـبـــابةً وأشكو الذى ألقى إلى غـير راحم
وأرتع من خـــديه فى جنـة المنى ويصلى فـؤادى مـن هواه بجـاحم
تقضى الصـبا واللهو إلاّ حشـاشة تجـدد لى عـهـد الصبـا المتـقـادم
كـأنى لـم أقطع بصـبح وقـــهـوةٍ زمـــانى ولم أنعـم بأحـــور ناعم
ولابت فى لـيل الغـــواية لائمًـــا له تحت استـار الدجى وهو لاثمى
إذا مـا أدار الكأس وهنا حـسـبتـه يدير هلالاً طـالعًـا فـى غـمـــائم

أبا حـــسن إنـى بودك مـــعـــصم فهل أنت يومًا من جفائك عاصمى
جعلتـك فى نفسى وقلبى مـحكمًا لترضى فقد أصـبحت أجور حاكم
أتظلـمنى ودى ومـــا زال فـــيكم قَـــرِيعُ عُلًى يُـرْجَى لرد المظـالم
وقد كان فص الفخر فى خنصر العلا أبوك ووسطى فـوق جـيـد المكارم
وكم ضم ظهر الأرض منـكم وبطنها بدور دجى من كل أشـوس حـازم
وأبلج فضفاض الـقميص حلاحل طويل نجاد السيـف ماضى العزائم
ومـا أذهلـنى عن ودادك غـيـــبـة قدحت بها نار الأسـى فى حيازمى
وكم لى فـيهـا نحـوكم من تحيـة أحـملهـا مـرضى الـرياح النواسم
إذا مـر ذكر منك يومًـا على فـمى توهمتـه مسكًا سرى فى خيـاشمى
دعانى إليك الشـوق فاهتاج طائرى ضـحى بخـوافٍ للهـوى وقـوادم
ولو إننى فى مـلحـدى ودعـوتنى للبتك من تحـت الصعيـد رمائمى
سأصفيك محض الود ما هبت الصبا وما سجـعت فى الأيك ورق الحمائم

* * *

وقال أيضًا جاريا على عادته من التشـبيب، وسالكًا جادته من الخضوع للحبـيب، إلاّ أنَّه اعتـذر من الهوى فى المشـيب، وأنكر أخلاق الشُّـبّان على الشيب:

خليلى ما للريح أضـحى نسيمـها يذكـرنى مـا قـد مـضى ونسـيتُ
أبعد نذير الشـيب إذ حل عارضى صـبـوت بأحداق المـها وسـبـيتُ
ولى سكن أغرى بى الحـزن حسنه جَـرِىءٌ على قـتل المحب مـقـيتُ

تلاحظنى العينان منه برحمةٍ فأحيا ويقسو قلبه فأموتُ
فيا قمرًا أغرى بى النقص واكتسى كمالا ووافى سعده وشقيتُ
وليت فرقى إذ وليت لهائمٍ سباه لَمًى كالشهد منك وليتُ
وجودى ببرد الوصل يا جنة المنى فإنى بِحَرِّ الوجد منك صليتُ

وكتب إليه الكاتب أبو الحسن راشد بن عريب يستدعيه إلى معاطاة قهوة، وساعات سلوة:

طربت إلى شمسية قد تروقت فأربت على الصهباء لونًا ورائحهْ
فلو أنّ فيها نقطة هندسيةً لباتت بها فى ظلمة الليل بائحهْ
فكن مسعدى يا من سجاياه لم تزل وأخلاقه تغنى عن المسك فائحهْ

فأجابه رحمه الله:

طربت فأطربت الخليل إلى الذى طربت له فالنفس نحوك جانحهْ
وكم أسكرتنا منك من غير قهوةٍ شمائل تغنينا عن المسك فائحهْ
فلله أيام بقربك أسعدت غوادٍ علينا بالسرور ورائحهْ
فساعاتى الطولى لديك قصيرة وصفقة كفى فى التجارة رابحهْ

* * *

وقال يصف كتابا ورد عليه من محبوب كان هجره، ووعده فيه باللقاء وبشره:

نفسى فداء كتاب حاز كل منى جاء الرسول به من عند محبوبِ
مبشرًا أنَّ ذاك السخط عاد رضًا وبدلت منه بعد بتقريب

obeikandl.com

حَسِبتُه ناظرا نحوى بناظره ومهديا لى ما فى فيه من طيب
ظَلِلْتُ أطويه من وجد وأنشره وكاد يلبيه تقبيلى وتقليبى
كم قبلة لى فى عنوانه عذبت وبردت بالتلظى حر تعذيب
كأنه حين جلى الحزن عن خلدى «قميص يوسف فى أجفان يعقوب»
لو كل ما فيه من موعوده كذبًا شفى فكيف بوعدٍ غير مكذوب

***

وكتب إليه بعض إخوانه متمثلا بقول القائل:

ودادكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
وودى لكم كالآس حسنا وبهجة له خضرة تبقى إذا ذهب الورد

فراجعه بهذا الشعر:

لعمرى لقد شرفت ودى بثلبه وصيرت لى فضلا عليك ومفخرَا
صدقت: وداد الورد رطبًا ويابسًا وماء إذا عصر الأزاهر أدبرَا
وودك مثل الآس ليس بنافع ولا نافحٍ إلاّ إذا كان أخضرَا
ألم تر أنَّ الورد يكرم إن ذوى ويطرح فى الميضاة آس تغيرا
أفضلت عبد السوء جهلا على الذى غدا فى الأزاهير الأمير المؤمرا

***

وكتاب إلى الكتاب أبى عبد الله بن أبى الخصال، يراجعه عن شعر خاطبه به:

بماذا أكـــافى نـدبا كـــســـانى حلى من عـلاه بهـا قـد حـبـانى
وقـلد جـــيـــــدى مـن دره مـــا لم تـقلد نحـــور الـغـــوانى
مـــحـاسـن أصـبـح لى لفظهـــا مـعـــارًا وأضـحت لديه المـعـانى
فـقـل للذى حـاز خـــصل المدى فليـس يبـــاريه فى الســبـق ثانى
أهذى شـــــمـــــائـلك الـزاهرا ت أهديتـهـا أم ثـغـور الحـسـان
أم الأنجم الـزهر أطلعـــتـــهـــا على أفـق بســمـــاء الـبـيـــان
أم الوشى مـــا نمـنمت راحـــتـــا ك أم الأعـين الحور جـاءت روانى
أم الروض بات نـديم الغـــمـــام يسـقـــيـه من غـيـر بـنت الدنان
يضـــاحكـه عن ثغـــور البـــروق ويشـــدوه من وعـــده بالأغـــانى
تئـن زف ودك نحـــوى لـقـــد غـــدا مـن فـــؤادك بأعلـى مكان
ومـهـمـا أسـاءت بـطول البـعـاد خطوب فـقـد أحـسنت بالتـدانى
كـــأن الزمـــان أتـى تائبـــا إلى وأنـت اعـــتـــذار الزمـــان

***

ومن شعره الذى يزرى بزهر الرياض، وغنج الأعين المراض، قوله:

أيا مُمْرضًا جسمى بأجفانه المرضى سلبت الكرى عنى فهب منه لى البعضا
ليهـنك غمض العـين عمن تركـته سمير نجوم الليل مـا يطعم الغمضا
أتسخط من ذلى لعـزك فى الهوى وأرضى بخدى أنْ يكون لكم أرضا
قضى الله أنْ أشقى وغيرى بوصلكم سعـيد ومن يَسْطيع ردا لّما يـقضى

obeikandi.com

ومما أغرب به وأبدع قطعة تنفك منها ست قطع وهى:

نفسى الفداء لجؤذر حلو اللمى مستحسن بصدوده أضنانى

فى فيه سمطا جوهر يروى الظما لو علنى ببروده أحيانى

❊ ❊ ❊

ثم زاد فى غرابة هذا المنزع، بأن صنع قطعة تنفك منها تسع قطع، وهى:

طيف سرى من خاطر القلب الذوى فوفى لنا بعداته وقضى الوطر

بذ الكرى عن ناظر الصب الجوى وشفى الضنى بهباته ومضى حذر

❊ ❊ ❊

وقال يصف تينا أسود مكتَّبا:

أهلا بتين كالنهود حوالك ضمخن مسكا شيب بالكافور

وكأن ما زرت عليه جيوبها شهد يشاب بسمسم مقشور

وكأنما لبست لجينا محرقا فيه بقايا من بياض سطور

❊ ❊ ❊

وقال يصف حمَّاما:

أرى الحمام موعظة وذكرى لكل فتى أريب ذى ذكاء

يذكرنا عذاب ذوى المعاصى وأحيانا نعيم الأتقياء

شقا هجر يشوب نعيم وصل وحر النار فى برد الهواء

إذا مـــا أرضـــه التـــهـبـت بنار تبـــــادر ســـــمكـه هطـلا بماء
كـصـدر الصـب جـاش بما يلاقى فـلـج الـطـرف مـنـه بـالـبـكـاء
كـــأن له حـــبـــيـــبـــا بـان عنه فـــبـان وخـــانه حـــسن العـــزاء

❊ ❊ ❊

ومن شعره المطرب وتغزله المعجب قوله:

أيا قـــمـــرا فى وجنتـــيـــه نعـــيم وبين ضلـوعى من هواه جـحـــيم
إلى كم أقاسى منك روعـا وقسوة وصـرمـا وسـقـمـــا إنَّ ذا لعظيم
وإنى لأنـهى الـنفس عـنك تجـلدا وأزعـم أنى بـالسـلو زعـــــيـم
فإن خطرت بالقـلب ذكراك خطرة ظَـلِـلْـتُ بـلا لب إلـيـك أهـيـم

❊ ❊ ❊

ومن مديحه الذى أبدع فـيه وأغرب، وذهب فيه أحـسن مذهب، قوله يمدح القادر، رحمة الله عليه:

ضـمـــان على عـينيـك أنى هائم تصـدع قلبى حول وصلك حـائم
فـؤادك قاس ليس لـى فى رحمـة ويوهـم منك الـلحظ أنـك راحم
ظلمت ولم ترهب مغـبة ما جنت جفـون لها فى العـاشقـين ملاحم
أظن عـقاب الله نالك فى الهـوى فـخـصـرك مظـلوم وردفك ظالم
ولحظك مضنى ما يفيق من الضنى كمـا ضنيت فيك الجـسوم النواعم
وخـدك بـالألحـاظ يجـرح دائـبـا فكل لـه باللحظ مـــدم وكـــالم

يقولون غصن البان ما حاز خصره ودعص النقا ما حاز منه المعاكم
وفى طوقه بدر الدجنة طالع تجلله قطع من الليل فاحم
وقالوا اللمى المحمر فص عقيقه بمبسمه المعسول والثغر خاتم
لك المثل الأعلى وفى الجهل عاذر بتقصيرهم إنْ لامهم فيك لائم
وما أنت إلاّ آية الله فى الورى وحكمته إنْ قال بالعلم عالم
لقد يخسوك الحق جهلا وأخطأت بما رجمت فيك الظنون الرواجم
كما بخسوا يحيى بن ذى النون حقه فقالوا ابن سعدى فى النوال وحاتم
وقالوا حكى الضرغام فى الروع بأسه وذلك ما لا تدعيه الضراغم
وقالوا هو الدهر الذى ليس دونه حمى وهو المخدوم والدهر خادم
وأنى لليث الغاب فى الروع بأسه إذا صال فى الهيجاء والنقع قاتم
ومن أين للسيف الحسام مضاؤه إذا انتضيت للحرب منه العزائم
ومن أين للمزن الكنهور جوده إذا انهملت من راحتيه المكارم
لنا بارق من بشره خلبا إذا شامه يوما من الناس شائم
عليه من المأمون يحيى مشابه ترى ولإسماعيل فيه مياسم
همامان شادا مجد له التقى أساس وأطراف الرماح دعائم
أبا الحسن استنشق ثنائى فإنما فؤادى دارين وشعرى لطائم
لبست حلى للفضل حائكها التقى ومعلمها الإفضال والمجد راقم
وأورثك المأمون صارمه الذى به لم تزل تفرى الطلى والجماجم

فصمم ولا تحجم فإنك صارم حسام ومنه فى يد الله قائم
لك السرحة الغناء فى المجد لم تزل تروضها من راحتيك الغمائم
رياض لنا سجع بمدحك وسطها كأنا على أفنانهن حمائم
ودونك بكرا من ثنائى زففتها إليك كما زف الغوالى الكرائم
كستك بطليوس بها عبقرية كما انشق عن زهر الرياض كمائم
وما أنت ذو فقر لما أنا واصف ولا أنا ذو إفك بما أنا زاعم
سجاياك تملى الفخر والدهر كاتب وعلياك تعطى الدر والشعر ناظم
فدم عامرا للمجد تعنو لك العدا وتحسدنا فيك النجوم النواجم

قال أبو نصر: هذا ما سمح به خاطر لم تخطر عليه سلوة، وذهن ناب لم ترهف له نبوة، ووقت أضيق من المأزق المتدانى، ومقت للزمن شغلنى عن كل شىء وعدانى، أتجرع به الصاب وأتدرع منه الأوصاب، فما أتفرغ لإنشاء قول، ولا أصحو من الانتشاء من هول، وإلاّ فمحاسن هذا الرجل كانت أهلا أنْ يمتد عِنانها، ويسكب عَنانها، لكن عاق عن ذلك الدهر الذى شغل، وأوغلنا فى شعاب الأنكاد حيث وغل.

انتهى التأليف البارع.

***

ولابد أنْ نذكر ما لأبى نصر من القلائد فى حق الرجل المذكور، وأختصر ما جرى ذكره هنا من النظم.

قال فى القلائد فى حق الشيخ ابن السيد المذكور ما نصه:

الفقيه الأستاذ أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن السيد البطليوسى، شيخ المعارف وإمامها، ومن فى يده زمامها، لديه تنشد ضوال الأعراب، وتوجد شوارد لغات الإعراب، إلى مقطع دمث، ومنزع فى النفاسة غير منتكث، وكان له فى دولة ابن رزين مجال ممتد، ومكان معتد، ولَمَّا رأى الأحوال واختلالها، والأقوال واعتلالها، وتلك الشموس قد هوت، ونجوم الآمال قد خوت، أضرب عن مثواه، ونكب عن نجواه، واغترب بلوعة ابن رزين وجواه، ونصب نفسه لإقراء علوم النحو، وقنع بتغييم جوه بعد الصحو، وله تحقيق بالعلوم الحديثة والقديمة، وتصرف فى طرقها القويمة، ما خرج بمعرفتها عن مضمار مشرع، ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع، وتواليفه فى الشروحات وغيرها صنوف، وهى اليوم فى الآذان شنوف، وقد أثبت له ما يريك شفوفه، وتجد على النفس حفوفه[1].

فمن ذلك قوله فى طول الليل:

ترى ليلنا . . . . . البيتين وقد سبقا.

ثم قال الفتح: وأخبرنى أنه حضر مع المأمون بن ذى النون فى مجلس الناعورة بالمنية التى تطمح إليها المنى، ومرآها هو المقترح والمتمنى، والمأمون قد احتبى، وأفاض الحبا، والمجلس يروق كأن الشمس فى أفقه، والبدر كالتاج][2] فى مفرقه، والنور عبق، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق، والدولاب يئن كناقة إثر الحوار، أو كثكلى من حر الأوار، والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد رشته أنداؤه، والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت أمواهها فقال:

يا منظرًا إنْ نظرت بهجته . . . . . الأبيات وقد تقدمت.

ثم قال الفتح: وله رقعة يصف بها هذا التصنيف يعنى قلائد العقيان:

(١) تحرف فى سائر الأصول إلى: «خفوفه» بالخاء المعجمة، وبهامش المطبوع: «كذا فى الأصول. وفى القلائد حفوفه، ولم نوفق إلى تصويبه». قلت: وما فى القلائد هو الصواب، وهو المثبت هنا، ويدعمه رواية القلائد فيما بعد: «لا عدمت شفوفا، ولا برح مكانك بالآمال محفوفا».

(٢) القلائد ص ٧١٤ وما بين حاصرتين منه.

تأملت فسح الله لسيدى ووليى فى أمد بقائه، كتابه الذى شرع فى إنشائه، فرأيت كتابا سينجد ويغور، ويبلغ حيث لا تبلغ البدور، وتبين به الذرى والمناسم، وتغتدى له غرر فى أوجه ومواسم، فقد أسجد الله الكلام لكلامك، وجعل النيرات طوع أقلامك، فأنت تهدى بنجومها، وتردى برجومها، فالنثرة من نثرك، والشعرى من شعرك، والبلغاء لك معترفون، وبين يديك متصرفون، وليس يباريك مبار، ولا يجاريك إلى الغاية مجار، إلاّ وقف حسيرا، وسبقت ودعى أخيرا، وتقدمت لا عدمت شفوفا، ولا برح مكانك بالآمال محفوفا، بعزة الله.

* * *

وله يراجع الأستاذ أبا محمّد بن جوشن، عن شعر كتب به إليه وتضمن غزلا فى أول القصيدة فحذا حذوه[1]:

حلفت بثغر قد حمى ريقه العذبا ... وسل عليه من لواحظه عضبا

وفرحة لقيا أذهبت ترحة النوى ... وعتبى حبيب هاجر أعقبت عتبا

لقد هز عطفى بالقريض ابن جوشن ... سرورا كما هزت صبا غصنا رطبا

كسانى ارتياح الراح حتى حسبتنى ... حليف بعاد نال من حبه قربا

وأطربنى حتى دعانى الورى فتى ... وقالوا كبير بعد كبرته شبا

كأن المثانى والمثالث هيجت ... سرورى ولم أسمع غناء ولا ضربا

فيا مزمع الترحال قل لابن جوشن ... مقال محب لم يشب جده لعبا

أمهدى سجاياه إلىَّ وناظما ... لى الشهب عقدا راقنى نظمه عجبا

وما خلت إهداء الشمائل ممكنا ... لمهد وأنَّ الدهر ينتظم الشهبا

---

(١) القلائد ص ٧١٦.

obeikandl.com

فهل نال عبد الله من سحر بابل نصيبا فأربى أو حوى الدهى والإربا
ليهنك فضل حزت من خصله المدى ونظم بديع قد غدوت له ربا
وهاك سلاما صادرا عن مودة عمرت بها منى الجوانح والقلبا

***

وله رحمه الله فى الزهد من لزوم ما لا يلزم:

أمرت إلهى بالمكارم كلها ولم ترضها إلاّ وأنت لها أهل
فقلت اصفحوا عمن أساء إليكم وعودوا بحلم منكم إنْ بدا جهل
فهل لجهول خاف صعب ذنوبه لديك أمان منك أو جانب سهل

وله رحمه الله يجيب شاعرا قرطبيا مدحه:

قل للذى غاص فى بحر من الفكر بذهنه فحوى ما شاء من درر
لله عذراء زفت منك رائحة تختال من حبرها المرقوم فى حبر
صدقها الصدق من ودى ومنزلها بصيرتى وسواد القلب لا بصرى
كأنما خامرتنى من بشاشتها راح وسكر بلا راح ولا سكر
هزت بدائعها عطفى من طرب لحسنها هزة المشغوف للذكر
ما كنت أحسب أنَّ النيرات غدت يصيدها شرك الأوهام والفكر
ولا توهمت أيام الربيع ترى فى ناجر غضة الأنوار والزهر
أما الجزاء فشىء لست مدركه ولو بدرت إلى التوجيه بالبدر
لكن جزائى صفاء الود أضمره إذا القلوب انطوت منه على كدر

جـاراك ذهنى فى مضـمارها فكبـا ذهنى وفزت بخصل السبق والظفر
وهل بطـليـوس فى نظم مـناظرة يومـا لقـرطبـة فـى حكم ذى نظر

وله أيضًا رحمه الله يصف زربطانة ملغزا[1]:

وذات عـمى لـهـا طرف بصـيـر إذا رمـدت فـأبصـر مـا تكونُ
لهـا من غـيـرها نفس مـعـار وناظـرها لذى الإبـصـار طـين
وتبـطش باليـمـيـن إذا أردنا وليس لـهـا إذا بطشت يـمـين

* * *

وكتب إلى الأستاذ أبى الحسن بن الأخضر رحمه الله[2]:

يا سيدى الأعلى، وعمادى الأسنى، وحسنة الزمان الحسنى، الذى جل قدره، وسار مـسير الشمس ذكره، ومن أطال الله بقـاءه، لفضل يعلى مناره، وعلم يحـيى آثاره نحـن - أعـزك الله - نتـدانى إخـلاصـا، وإنْ كنا نتناءى أشخاصـا، ويجمعنا الأدب، وإنْ فرقنا النسـب، فالأشكال أقارب، والآداب مناسب، وليس يضر تنائى الأشبـاح، إذا تقاربت الأرواح، وما مثلنا فى هذا الانتظام، إلاّ كما قال أبو تمام رحمه الله:

نسـيبى فى رأيى وعلمى ومـذهبى وإنْ بإعـدتنا فى الأصـول المناسب

ولو لم يكن لمآثـرك ذاكـر، ولا لمفـاخـرك ناشـر، إلاّ ذو الوزارتين أبو فلان، أبقاه الله لقام لك مقام سحـبان وائل، وأغناك عن قول قائل، فإنه يمد فى مضمار ذكـراك باعا رحيبا، ويقوم بفخرك فـى كل ناد خطيبا، حتى تثنى إليـه الأحـداق، وتلوى نحـوه الأعناق، فكيف ومـا يقـول إلاّ بالذى علمت سَعْد، وما تقـرر فى النفوس من قبل ومن بعد، فذكـرك قد أنجد وغار، ولم

(١) القلائد، ص ٧١٩.
(٢) القلائد، ص ٧٢٠.

يسر فلك حيث سار، وإنْ ليل جهل أطلعت فيه فجر تبصيرك، لجدير بأن يصير نهارًا، وإنَّ نبع فكر قدحته بتذكيرك لجدير أنْ يعود مرخا وعفارًا، فهنيئا لك الفضل الذى أنت فيه راسخ القدم، شامخ العلم، منشور اللواء، مشهور الذكاء، مليت الآداب عمرك، ولا عدمت الألباب ذكرك، ورقيت من مراتب أعلاها، ولقيت من المآرب أقصاها، بفضل الله.

***

وكتب مراجعا إلى الوزير أبى محمّد بن سفيان[1] رحمه الله:

يا سيدى الأعلى، وعمادى الأسنى، ومشربى الأصفى، ومن أدام الله عزته، وحمى من النوائب حوزته، وافانى لك كتاب سرى الموضع، سنى الموقع، أطال على إيجازه، وأطمع بعد إعجازه، وقابلت الرغبة التى ضمنتها فيه، بما تقتضيه جلاله مهديه، ولئن تراخى الكتاب عن حسن فى ذلك العتاب، فإن المودة لم يقدح فيها من الملل قادح، ولم يسنح لها من الخلل سانح، بل كانت كالبرد طوى على غره، إلى أوان جلائه ونشره، وقد علم علام الضمائر، والذى يظن غائبا وهو حاضر، أنى أعتقدك القدح المعلى، وأضرب بك المثل الأعلى، وأرى أنك تحجيل واضح فى دهمة الزمان، وعلق راجح فى كفة الامتحان، وبقية سنخ كريم، ما عهدهم عنا بذميم.

عليهم سلام الله ما ذر شارق ورحمة ما شاء أنْ يترحما

[وما أدعى لك جانبا من السيادة، إلاّ لك عليه أعدل الشهادة، ولكن قديما سفل ذو الرجحان، وعاد الكمال على أهله بالنقصان، وكبت الأعالى بارتفاع الأسافل، حتى اقتضى ذلك قول القائل:

(١) القلائد، ص ٧٢١.

فوا عجبا كم يدعى الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل][1]

وقال المذمر للناتجين متى ذمرت قلبى الأرجل

وقد جاريتك - أعزك الله - فى ميدان من البلاغة أنا فيه كمن كاثر البحر والمطر، وجلب التمر إلى هجر، والذى حدانى إليه، أنه مر بى زمن أَلْهَى خاطرى عنك فيه وسن، فقلت قد كان من العقوق، ترك رعاية الحقوق، فلاستمطرن مزن القول، فقد كنت عهدتها تسجم فتغدق، ولأستسقين جابية الشيخ العراقى، فقد كانت تطم فتفهق أيام كنت أسحب ذيل الشباب، وأسلك مسلك الكتاب، ويعجبنى سلوك سهل الكلام وحزونه، والتصرف بين أبكاره وعُونه، أستن استنان الطرف [الجامح، ولا أثنى عنان الطرف][2] الطامح، وأُرَوِّى هامتى، وأقول بما صبت على غمامتى، إلى أنْ تعمم مفرقى بالقتير، وعلتنى أبهة الكبير، وودعت زمنى الزائل، وعادت سهامى بين رث وناصل، وعريت أفراس الصبا ورواحله، وسددت على سوى قصد السبيل معادله، فلئن هريق [ماء][2] الشباب واستشن الأديم، وأقشع السحاب، وتجلت الغيوم فلعل فى الأفق ربابة، وفى الحوض صبابة، وعسى أنْ يكون فى أخلاف المقالة دَرٌّ يرضع، وفى حقاق البلاغ دُرٌّ يرصع، ولأزفنها عذراء، لا ترتضى إلاّ الأكفاء، فليس يبين النجد إلاّ فى مآزق الهيجاء، ولا يحسن العقد إلاّ فى عنق الحسناء، ولأجعلن الشعر لها شعارا، وفقر النثر لها دثارا، فاهتصرْها إليك وَلْهَى، عروبا، قد رضيت بك محبا ومحبوبا فتضمخك بمسكها، وتؤمنك من فركها، وتذر ذرور الشمس عليك، وتهز فى ندوة الحى عطفيك، فإن قضت من حقك فرضا، ورتقت من فتق الإخلال ولو بعضا، فذاك ما تضمنه الخاطر الذى نمنم بردها، ونظم عقدها،

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن القلائد ص ٧٢٢.

(٢) التكملة عن القلائد، ص ٧٢٣.

وإنْ أخلف الظن ما أوهم ووعد، وقصر الذهن فيها أحكم وسدد، فللخاطر عذر فى أنه منصل أغفل شحذه وجلاؤه، حتى ذهب فرنده وماؤه، ومنهل ضيع ورده، فنضب عده:

والشوال ما حلبت تدفق رسلها وتجف درتها إذا لم تحلب

***

وله من قصيدة يمدح بها ذا الوزارتين أبا محمّد بن الفرج[1]:

نبه الليل بالوجيف ولا تو لع بدار الهوان بالإغماض
واقر ضيف الهموم كل أمون عنتريس وبازل شرواض
أنقذتنى من الردى وطأتى البيـ ـد ونقض الهموم بالإنقاض
شكلها كالقسى وهى سهام للفلا والرغاء كالإنباض
خلنها حين خاضت الليل سبحا غمست من دجاه فى خضخاض
صدعت عرمض الدياجر حتى كرعت فى ماء الصباح المفاض
حين راع الظلام وخط مشيب قد سرى فى سواده ببياض

وقال فى الزهد[2]:

تجوهرك الأدنى عنيت بحفظه وضيعت من جهل تجوهرك الأقصى
لقد بعت ما يبقى بما هو هالك وآثرت لو تدرى على فضلك النقصا

وقال فى ذلك أيضًا: وما دارانا إلاّ موات. . . . » البيتين.

وقد تمثلت بهما فى خطبة هذا الكتاب فراجعهما.

وله أيضًا يعزى ذا الوزارتين أبا عيسى بن لبون فى أخيه:

(١) قلائد العقيان، ص ٧٢٤.

(٢) قلائد العقيان، ص ٧٢٦.

للمرء فى أيامه عبر ... والصفو يحدث بعده كدر[1]

خرس الزمان لمن تأمله ... نطق وخُبْر صروفه خَبَر

نادى فأسمع لو وعت أذن ... وأرى العواقب لو رأى بصر

كم قال هبوا طالما هجعت ... منكم عيون حقها السهر

أَبِأُذْنِ من هو مبصرى صمم ... أم قلب من هو سامعى حجر

لولا عماكم عن هدى نذرى ... ومواعظى ما جاءت النذر

هذى مصارع معشر هلكوا ... وعظتكم بالصمت فاعتبروا

ومنها:

قالت أرى ليل الشباب بدت ... للشيب فيه أنجم زهر

فأجبتها لا تكثرى عجبا ... من شيبة لم يجنها كبر

لكن طويت من الهموم لظى ... أضحى لها فى عارضى شرر

ومنها:

حسنت شمائلكم وأوجهكم ... فتطابقا مَرْأًى ومختبر

والحسن فى صور النفوس وإنْ ... راقتك من أجسامها الصور

لا ضعضعت أيدى الخطوب لكم ... ركنا ولا راعتكم الغير

وقال يخاطب مكة[2] أعزها الله:

أمكة تفديك النفوس الكرائم ... ولا برحت تنهل فيك الغمائم

وكفت أكف السوء عنك وبلغت ... مناها قلوب كى تراك حوائم

---

(١) قلائد العقيان، ص ٧٢٧.

(٢) قلائد العقيان، ص ٧٢٩.

obeikandl.com

فـــإنـك بيت الله والحـــرم الذى ... لعـــــزته ذل الملوك الأعـــــاظم
وقـد رفعت منك القـواعد بالتـقى ... وشـــادتك أيد بـرة ومـــعـــاصم
وساويت فى فـضل المقام كلاكـما ... تنـال به الزلـفى وتحـــمى المـآثم
ومن أين تعـدوك الفـضائل كلهـا ... وفـيك مقـامـان: الهدى والمعـالم
ومبعث من سـاد الورى وحوى العلا ... بمولـده عـــبـــــد الإله وهـاشم
نبى حـوى فضل النبـيين واغـتدى ... لهم أول فى فـــضله وهو خـــاتم
وفـيك يمـين الله يلثمـهـا الورى ... كـما يـلثم اليـمنى من الملك لاثم
وفـــيك لإبراهيم إذ وطئ الثـــرى ... ضـحى قـدم برهـانهـا مـتـقـادم
دعـا دعـــوة الصـفـــا فـأجـــابه ... قطوف من الفـج العـمـيق وراسم
فأعجب بدعوى لم تلج مسمعى فتى ... ولم يعـــهـــا إلاّ ذكى وعـــالم
أَلَهْفِـى لأقدار عدت عنك هـمتى ... فلم تـنهض منـى إليك العـــزائم
فيا ليت شعرى هل أرى فيك داعيا ... إذا مـا دعت الله فـيك الـغـمـائم
وهل تمحون عنى خطايـا اقترفتـها ... خُطًى فيك لى أو يعـملاتٌ رواسم
وهل لى من سقيا حـجيجك شربة ... ومن زمزم يروى بهـا النفس حائم
وهل لى فى أجـر الملبـين مـقـسم ... إذا بذلت لـلناس فـــيك المقـــاسم
وكم زار مـــغناك المعظم مـــجـرم ... فـــحطت به عـنه الخطايا العـظائم
ومن أين لا يضـحى مرجـيك آمنا ... وقـد أمنت فـيك المها والحـمـائم
لئن فـــاتـتنى منك الـذى أنا رائم ... فـــإن هوى نفـــسى عليـك لدائم

وإنْ يحمنى حامى المقادير مقدما عليك فإنى بالفؤاد لقادم
عليك سلام الله ما طاف طائف بكعبتك العليا وما قام قائم
إذا نسم لم تهد عنى تحية إليك فهديها الرياح النواسم
أعوذ بمن أسناك من شر خلقه ونفسى فما منها سوى الله عاصم
وأهدى صلاتى والسلام لأحمد لعلى به من كبة النار سالم

انتهى ما أورده فى القلائد دون ما قدمناه.

***

ولنختم ترجمة ابن السيد بقوله:

إليك أفر من ذلى وذنبى فأنت إذا لقيت الله حسبى
وزورة أحمد المختار قدما منای وبغيتى لو شاء ربّى
فإن أحرم زيارته بجسمى فلم أحرم زيارته بقلبى
فدونك يا رسول الله منى تحية مؤمن وهدى محب
سأجعل عروتى الوثقى يقينى لصحة ما أتيت به وحبى
عسى ود ثوى لك فى فؤادى على بعد سيوجب منك قربى
شهدت بأن دينك خير دين بلا شك وصحبك خير صحب

ولنمسك العنان.

***

obeikandl.com

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله[1]:

الشيخ أبو على الجيانى، وهو حسين بن محمّد بن أحمد الغسانى - بغين معجمة وسين مهملة مشددة - الجيانى - بجيم ومثناة من أسفل مشددة - رئيس المحدثين بقرطبة، وليس هو منها، وإنما نزلها أبوه فى الفتنة وأصلهم من الزهراء.

روى عن أبى العاصى حكم بن محمّد الجذامى، وأبى عمر بن عبد البر وأبى شاكر القبرى، وأبى عبد الله محمّد بن عتاب، وأبى القاسم حاتم بن محمّد، وأبى عمر بن الحذاء القاضى، وأبى مروان الطبنى، والقاضى سراج بن عبد الله، وابنه أبى مروان، وأبى الوليد الباجى، وأبى العباس العذرى، وجماعة غيرهم يطول تعدادهم، سمع منهم وكتب الحديث عنهم.

وكان من جهابذة المحدثين، وكبار العلماء المُسْنِدِين، وعنى بالحديث وكتبه وروايته وضبطه، وكان حسن الخط، جيد الضبط، وكان له بصر باللغة والإعراب، ومعرفة بالغريب والشعر والأنساب، وجمع من ذلك كله مالم يجمعه أحد فى وقته، ورحل الناس إليه، وَعَوَّلُوا فى الرواية عليه، وجلس لذلك بالمسجد الجامع بقرطبة، وسمع منه أعلام قرطبة وكبارها، وفقهاؤها وجلتها.

أخبر عنه[2] واحد من الشيوخ، ووصفوه بالجلالة، والحفظ والنباهة، والتواضع والصيانة. وذكره الشيخ أبو الحسن بن مغيث فقال: كان من أكمل من رأيت علمًا بالحديث، ومعرفة بطرقه، وحفظًا لرجاله، عانى كتب اللغه، وأكثر من رواية الأشعار، وجمع من سعة الرواية ما لم يجمعه أحد أدركناه؛

(١) الصلة لابن بشكوال ج١ ص ١٤١، وفهرس شيوخ القاضى عياض (الغنية) ص ٩٩.
(٢) الصلة ج١ ص ١٤٢.

وصحح من الكتب ما لم يصححه غيره من الحفاظ، كتبه حجة بالغة، وجمع كتابًا فى الرجال الصحيحين، سماه «تقييد المهمل وتمييز المشكل» وهو كتاب حسن مفيد، أخذه الناس عنه.

قال أبو القاسم بن بشكوال[1]: قرأت بخط أبى على رحمه الله تعالى فى كتابه: أنا حكم بن محمّد، قال أخبرنا أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن رزيق، قال: سمعت أبا بكر محمّد بن أحمد البغدادى الوراق، قال: سمعت ابن الأصم يقول: سمعت أبى يقول - إذا رأى أصحاب الحديث -:

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم وأودهم فى الله ذى الآلاءِ
أهلاً بقوم صالحين ذوى تقى غر الوجوه وزين كل ملاء
يا طالبى علم النبى محمدٍ ما أنتم وسواكم بسواء

وأصابت الشيخ أبا على زمانة عطلته، فأعمل الرحالة إلى ألمرية للاستشفاء، بماءِ حَمَّتِها، حَمَّة بَجَّانَة؛ فقدم عليها فى صدر المحرم سنة ست وتسعين وأربع مائة؛ وكان نزوله بها على الشيخ الفقيه أبى الربيع سليمان بن حزم السبائى، وفى منزله وبقراءته وقراءة القاضى أبى القاسم بن ورد، وكان أكثر ما سمع عليه مَنْ بألمرية، ويوجد السماع عليه بِحَمَّة بجانة؛ ثم قفل إلى قريته، وبها توفى رحمه الله ليلة الجمعة لاثنى عشرة ليلة خلت من شعبان، وقال أبو جعفر بن الباذش: لعشرة خلون منه سنة ثمان وتسعين وأربع مئة؛ ودفن يوم الجمعة بمقبرة الربض عند الشريعة القديمة؛ ومولده فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربع مئة؛ وكان لزم داره قبل موته لزمانته.

(١) الصلة ج١ ص ١٤٢.

ذكر ذلك كله ابن بشكوال؛ وفيه عن غيره، وهذا هو الصحيح الذى لا يلتفت إلى غيره، ممن قال إن وفاته سنة ست وتسعين وأربع مئة. والله أعلم.

***

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله تعالى:

القاضى الشهير الشهيد أبو على الصدفى[1]. وهو حسين بن محمّد بن فِيـرُّهْ بن حيون بن سكرة. وفـيره - بكسر أوله، وياء مـثناة فى أسفل، وراء مضمومة مشددة، وهاء ساكنة -: قـيل معناه الحديد بلغة العجم، وقد صرح بذلك صاحب الديباج المذهب. وحيون - بحـاء مهملة، وياء مثناة من أسفل مـشددة. وسكرة: بضم السـين المهـملة، وفـتح الكاف المشددة، وآخـره تاء تأنيث: مؤنث سكر. والصدفى: بفتـح أوله وثانيه. وهو من أهل سرقسطة، سكن مرسـية، وروى بسـرقسطة عن أبى الوليـد سليمان بن خـلف الباجى، وأبى محمّد عبد الله بن محمّد بن إسماعيل وغيرهما، وسمع ببلنسية من أبى العباس العذرى، وسمع بأَلْمرية من أبى عبـد الله محمّد بن سعدون القروى، وأبى عبد الله بن المرابط، وغيرهما.

ورحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربع مئة، وحج من عامه، ولقى بمكة أبا عبد الله الحسين بن علىّ الطبرى: إمام الحرمين، وأبا بكر الطرطوشى، وغيرهما، ثم صار إلى البصرة، فلقى بها أبا يعلى المالكى، وأبا العباس الجرجانى، وأبا القاسم بن شعبة، وغيرهم.

وخرج إلى بغداد، فسمع بواسط من أبى المعالى مـحمّد بن عبد السلام الأصبهـانى وغيره، ودخل بغداد يوم الأحـد السادس عشر لجـمادى الآخرة،

(١) الصلة لابن بشكوال ج١ ص ١٥١، والغنية ص ٩٢، ومـختصر تاريخ ابن عـساكر ج٧ ص١٧٣.

سنة اثنتين وثمانين وأربع مئة، فأطال الإقامة بها خمس سنين كاملة، وسمع بها من أبى الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون مسند بغداد، ومن أبى الحسين المبارك[1] بن عبد الجبار الصيرفى، وأبى محمّد رزق الله بن عبد الوهاب التميمى، وأبى الفوارس طِرَاد بن محمّد الزينبى، وأبى عبد الله الحميدى؛ وتفقه على [الفقيه[2] أبى بكر الشاشى وغيره.

وسمع من جماعة سواهم من رجال بغداد ومن القادمين عليها أيام كونه بها. ثم رحل عنها فى جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وأربع مئة، فسمع بدمشق من أبى الفتح [نصر][2] بن إبراهيم المقدسى، وأبى الفرج سهل بن بشر الإسفرائنى وغيرهما.

وسمع بمصر من القاضى أبى الحسن علىّ بن الحسين الخلعى، وأبى العباس أحمد بن إبراهيم الرازى وأجازه له أبو إسحاق الحبال مسند مصر فى وقته ومكثرها.

وسمع بالإسكندرية من أبى القاسم مهدى بن يوسف الوراق، ومن أبى القاسم شعيب بن سَعِيد[3] وغيرهما.

ووصل إلى الأندلس فى صفر من سنة تسعين وأربع مئة؛ وقصد مرسية، فاستوطنها، وقعد يحدث الناس بجامعها؛ ورحل الناس من البلدان إليه، وكثر سماعهم عليه، وكان عالمًا بالحديث وطرقه، عارفًا بعلله وأسماء

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «أبى الحسين بن المبارك» وصوابه لدى ابن بشكوال ج١ ص ١٤٣، والغنية ص ٩٤، ونفح الطيب ٢/ ٩١.

(٢) التكملة من الصلة ١/ ١٤٣.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «شعيب بن سَعْد» وصوابه لدى ابن بشكوال فى الصلة ١/ ١٥٢ والمقرى فى نفح الطيب ٢/ ٩١.

رجاله ونقلته، بصيرًا بالمعدلين؛ وكان حسن الخط، جيد الضبط وكتب بيده علمًا مثيرًا وقيده؛ وكان حافظًا لمصنفات الحديث، قائمًا عليها، ذاكرًا لمتونها وأسانيدها ورواتها، وكتب منها صحيح البخارى فى سفر، وصحيح مسلم فى سفر، وكان قائمًا على الكتابين، مع مصنف أبى عيسى الترمذى. وكان فاضلاً دينًا، متواضعًا حليمًا، وقورًا عالمًا عاملاً؛ واستقضى بمرسية ثم استعفى فأعفى؛ وأقبل على نشر العلم وبثه.

قال ابن الأبار: وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه، لدخوله الشام. قال: وبعد أنْ استقرت به النوى، واستمرت إفادته بما قيد وروى؛ رفعته ملوك أوانه، وشفعته فى مطالب إخوانه؛ فأوسعته رعيًا، وحسنت فيه رأيًا؛ ومن أبنائهم من جعل يقصده، لسماع مسنده. وعلى وقاره الذى كان به يعرف، ندر له مع بعضهم ما يستظرف، وهو أنّ فتى منهم يسمى يوسف، لازم مجلسه، معطرًا رائحته، ومنظفًا ملبسه، ثم غاب لمرض قطعه، أو شغل منعه؛ ولما فرغ أو أبل، عاود ذلك النادى المبارك والمحل؛ وقبل إفضائه إليه دل طيبه عليه؛ فقال الشيخ، على نزاهته من المجون، وسلامته من الفتون: ﴿... **إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾** ﴾ [يوسف]. وهى من طرف نوادره، رحمة الله عليه.

ولما قلد الشيخ أبو علىّ قضاء مرسية، وعزم عليه فى توليه، ولم يوسعه عذرًا فى استعفائه مقدمه لذلك ومولیه؛ خرج منها إلى أَلْمَرِيَّة، فأقام بها، سنة خمس وبعض سنة ست وخمس مئة. وفى سنة ست قبل قضاءها على كره، إلى أن استعفى آخر سنة سبع، فى قصة يطول إيرادها. ولطول مقامه بألمرية أخذ الناس عنه فيها، فلما كانت وقعة كتندة، ويقال قتندة بالقاف، من

حيـز دورقة، من عمل سرقـسطة، من الثغر الأعلى، وذلك سنة أربع عـشرة وخمس مئـة، وكان الشيخ أبو على ممن حضرها، هـو وقرينه فى الفضل أبو عبد الله بن الفرج، خرجا مع الأمـير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين غازيين، فكانا فيمن فقد فيها واختلف فيها أصحابه، فجعلها أبو جعفر بن الباذش بعد العصـر، من يوم الأربعاء السابع عـشر من ربيع الآخـر، من السنة المذكورة، وتابعه أبو عـبد الله بن عبد الرحيم؛ وجـعلها القاضى أبو الفـضل عياض بن موسى يوم الخميس، لست بقين منه.

وقال أبـو القاسم بن بشكوال: اسـتشـهد القـاضى أبو علىّ فى وقـعة قتندة، بثغر الأندلس، يوم الخميس ووافق عياضًا إلاّ فى الشهر، فإنه قال من ربيع الأول(١).

قال ابن الأبار: وهو الأصح. وقال أبو عَمْرو الخـضر بن عبد الرحمن: توفى فى الكائنة على المسلمين بكتندة، عشى يوم الخـميس، الثامن عشر من شهر ربيع الأول، فتابع ابن بشكوال على الشهر.

قـال أبو عبـد الله بن الأبار: وقرأت بخط أبى عـبد الله بن مـدرك بن الغسانى المالقى: اسـتشهد الفقـيه أبو علىّ رحمه الله تعالى فى وقـعة كتندة، يوم الخـمـيس، التـاسع من ربيع الأول، وذكـر السنة. قـال: وكـانت على المسلمين، جبـرهم الله تعالى، قتل فيـها من المطوعة نحو عـشرين ألفًا، ولم يقتل فـيها من العسكر يعنى الجـند أحد، وحكى غيرهم أنّ العـسكر انصرف مفلولاً إلى بلنسية، فى الموفى عـشرين من ربيع الأول أيضًا، وأنَّ القاضى أبا

(١) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ١٤٤.

بكر بن العربى حضرها. قال: وسئل مخلصه منها عن حاله، فقال، حال من ترك الخِبَا والعَبَا[1].

قال ابن بشكوال: وكان القاضى أبو علىّ يومئذ من أبناء الستين، وقد ذكره ابن بشكوال، وقال: وهو ممن كتب إلينا بإجازة ما رواه، ولم ألقه[2].

وذكره ابن الأبار فى معجم أصحابه، وقد ألف ابن الأبار هذا المعجم فى أصحاب القاضى أبى علىّ، كما ألف القاضى أبو الفضل عياض بن موسى معجم شيوخه، رحمة الله عليهم أجمعين.

***

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله تعالى:

أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الهلالى، يعرف بابن بَقْوَى، ويقال ابن بقوة[3].

من أهل غرناطة، وسكن أَلْمَرِيَّةَ وسمع من شيوخ أَلْمَرِيَّةَ، مثل طاهر ابن هشام الأزدى، وأبى محمّد حجاج بن علىّ بن محمّد الرعينى، المعروف بابن المأمونى، وأبى القاسم خلف بن أحمد الجراوى، وأبى العباس أحمد بن عمر العذرى، وغيرهم؛ ومن الطارئين عليها، مثل القاضى أبى الوليد الباجى، وأبى عبد الله محمّد بن سعدون القروى.

وكان خروجه من أَلْمَرِيَّةَ بعد سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة، وسكن غرناطة مدة، وولى الأحكام بعدة جهات من كورة ألبيرة. وكان من حُفّاظ

(١) هذا مثل عند المغاربة، يقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه - بمعنى أنه ذهب جميع ما لديه.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ١٤٤.

(٣) الغنية للقاضى عياض، ص ١٦٢، والصلة لابن بشكوال ٢/ ٦١٩.

الحديث المعتنين بالتنقير عن معانيه، واستخراج الفقه منه، مع التقدم فى حفظ مسائل الرأى، والبصر بعقد الوثائق، والتقدم فى معرفة أصول الدين. روى عنه جماعة.

وولد فى صفر سنة أربع وأربعين وأربع مئة، وتوفى بغرناطة فى شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمس مائة؛ ذكره ابن بشكوال[1].

***

ومن أشياخ القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله:

القاضى أبو عبد الله محمّد بن عبد الرحمن بن علىّ بن سعيد بن عبد الله بن شبرين[2] - بشين معجمة مكسورة، وباء موحدة ساكنة، وراء مكسورة، بعدها ياء، آخر الحروف، وآخره نون - الجذامى، من أهل مُرْجِيق: حصن من حصون شِلْب، بينهما أربعون ميلا من الغرب.

أخذ عن القاضى أبى الوليد الباجى كثيرًا من مروياته وتآليفه، وصحبه واختص به، وكان من أهل العلم، والمعرفة والفهم، عالمًا بالأصول والفروع، واستقضى بإشبيلية، وحمدت سيرته، ولم يزل يتولى القضاء بها، إلى أنْ توفى ليلة الأربعاء لثلاثٍ خلون من رجب الفرد، سنة ثلاث وخمس مئة.

قال ابن بشكوال[3]: كتب إلىَّ القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بوفاته، وقال قيدتها حين وفاته. قلت: وهذا هو الصواب لا ما قاله بعض من شرح الشفا: إِنَّه توفى يوم الخميس رابع رجب المذكور، ولعله ظن

(١) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٦١٩.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٥٣٨، وفهرست شيوخ القاضى عياض، ص ٤٦.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٥٣٨.

أنَّ يوم دفنه يوم وفاته، على أنَّ مثل هذا قريب، لا سيما إن كانت وفاته آخر الليل، فلا يكون بين اليوم والليلة إلاّ مديدة قليلة جدًا، فافهم.

وحكى القاضى أبو الحسن عيسى بن حبيب: أنَّه رحل إلى أبى الوليد الباجى سنة تسع وستين وأربع مئة، وصحبه بسرقسطة، ثم سافر معه إلى أَلْمَرِيَّةَ، حتى مات أبو الوليد، فكانت صحبته له نحو أربعة أعوام، ووصل من منفعته به فى العلم فى هذه المدة، ما لم يصل إليه غيره منه فى المدة الطويلة، رحمهما الله تعالى؛ وأجاز له جميع رواياته أبو العباس العذرى، وأبو القاسم عبد الجليل الربعى القيروانى، مع تواليفه، وأجاز له أبو عبد الله ابن المرابط روايته عن الطلمنكى وخَلَف البغوى، وصحب بعد وفاة القاضى أبى الوليد الباجى ابنه أبا القاسم، وأجاز له جميع ما رواه، وانصرف إلى حصن مرجيق، فولى الأحكام به، ثم نقل إلى قضاء شلب، فأقام بها قاضيًا أعوامًا، ثم نقله الأمير سير بن أبى بكر إلى قضاء إشبيلية، بعد صرف أبى القاسم بن منظور عن قضائها، فضبط الأمور، وجمع المفترق من شئون القضاء، وكان صليبًا فى الحق، نافذًا فى أحكامه، لا تأخذه فى الله لومة لائم، وشَنِئَه أقوام، فبغوا عليه، بغيًا وحسدًا، عند أمير المسلمين علىّ بن يوسف بن تاشفين، فصرفه عن القضاء، ثم لم يلبث إلاّ نحو خمسة عشر يومًا، حتى رده إليه أحسن رد. وكان الفقيه أبو مروان الباجى يثنى عليه، ويبالغ فى تقريظه، ويقول: ما علّمنا القضاء إلا أبو عبد الله بن شبرين.

ولم يزل قاضيًا بإشبيلية، مضطلعًا بأعباء القضاء، حسن السياسة فيه، ناشرًا للعلم، إلى أنْ توفى بها، رحمه الله تعالى. ذكره ابن بشكوال[1].

(١) لم يذكر ابن بشكوال سوى الفقرة الأخيرة.

وإذا تتبعنا أشياخ القاضى عياض بالتعريف، لم يَسَعْ ذلك هذا الموضوع، وقد تقدم أنهم نحو المائة، ورتبهم ولده على الحروف، حسبما نقل من فهرسته.

* * *

فمنهم فى حرف الهمزة:

الشيخ ابن بقى[1]، وهو أحمد بن محمّد بن محمّد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقى بن مخلد. ولد فى شعبان سنة ست وأربعين وأربع مئة. ومات منسلخ ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة. وكف بصره بآخر عمره. رحمه الله.

* * *

ومنهم فى هذا الحرف:

أبو جعفر بن المرخى[2]، وهو أحمد بن محمّد بن عبد العزيز اللخمى توفى ليلة الجمعة لثمان بقين من ربيع الأول، سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة.

ومنهم:

الشيخ ابن غلبون[3]، وهو أحمد بن محمّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان ابن غلبون - بفتح الغين المعجمة، وضم الباب الموحدة،

(١) فهرست شيوخ القاضى عياض ص ٦٦، والصلة الترجمة: ١٧٤.

(٢) فهرست شيوخ القاضى عياض، ص ٧٥.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص ٧٦.

وآخره نون. ولد سنة ثمان عشرة وأربع مئة، ومات فى شعبان سنة ثمان وخمس مئة.

ومنهم:

أبو العباس أحمد بن محمّد بن عبد الرحمن الأنصارى الشارقى[١]، توفى قرب خمس مئة.

ومنهم:

أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر بن أحمد الفقيه اللواتى[٢] - بفتح اللام - منسوب للواتة، مخففة الواو، مفتوحتها، ومفتوحة اللام أيضًا، وتاء مثناة من فوق، قبيلة. ابن الفاسى، نسبة لفاس الحضرة المشهورة، حاط الله أرجاءها، وبلغها من الأمن والعافية رجاءها. مات فى الثامن من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة وخمس مئة.

ومنهم:

أحمد بن سعيد بن بَشْتَغِير[٣]، وأحمد بن محمّد بن مكحول[٤]، إلى غيرهم من جملة سبعة عشر رجلاً فى هذا الحرف، أعنى حرف الهمزة.

---

(١) فهرست شيوخ القاضى عياض، ص ٨٠.

(٢) فهرست شيوخ القاضى عياض، ص ٨٦.

(٣) فهرست شيوخ القاضى عياض، ص ٦٨.

(٤) لعله الذى فى فهرست شيوخ القاضى عياض، ص ٦٩ باسم: «أحمد بن عثمان بن مكحول» وجاءت ترجمته عقب ترجمة ابن بشتغير كما هنا.

ومنهم فى حرف الحاء:

الحسين بن محمّد الصدفى، والحسين بن محمّد الغسانى، وقد تقدم الكلام عليهما، والحسين بن عبد الأعلى السفاقسى، والحسين بن علىّ بن طريف.

ومنهم فى حرف الخاء:

خلف بن إبراهيم أبو القاسم الخطيب المقرئ[1]. وهو خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد المعروف بابن النخاس، بخاء معجمة، وبابن الحصار. ولد سنة سبع وعشرين وأربع مئة، وتوفى بقرطبة يوم الثلاثاء، سادس عشر صفر سنة إحدى عشرة وخمس مئة. وخلف بن خلف الأنصارى بن الأنقر. وخلف بن يوسف بن فرتون.

ومنهم فى حرف الميم:

القاضى أبو الوليد بن رشد، والقاضى عبد الله بن حمدين، والقاضى أبو عبد الله بن الحاج، والقاضى ابن العربى، والقاضى ابن شبرين، وقد تقدم ذكرهم.

وأبو عبد الله التميمى، وهو محمّد بن عيسى بن حسين[2]، ولد سنة تسع وعشرين وأربع مئة، ومات بسبتة صبيحة يوم السبت لتسع بقين من جمادى الأولى سنة خمس وخمس مئة.

وأبو عامر محمّد بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل الطليطلى[3]، بظم الطاءين. ولد سنة ست وخمسين وأربع مئة ومات بقرطبة، فى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة.

(١) الغنية ص ١٠٦.

(٢) الغنية ص ١٠.

(٣) الغنية ص ٤٤.

وأبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن أبى تليد بمثناة من فوق مفتوحة، الشاطبى الرعينى[1]، منسوب لذى رعين من حمير. ولد سنة أربع وأربعين وأربع مئة ومات فى ربيع الآخر سنة سبع عشرة وخمس مئة.

ومن شعره رحمه الله ورضى عنه:

الليالى تسوء ثم تسر وصروف الزمان ما تستقرُّ

بينما المرء فى حلاوة عيشٍ إذ أتاه على الحلاوة مر

فالكريم المصاب يفزع فيه لكريم وينفع الحر حر

وأبو عبد الله محمّد بن عبد الرحمن بن سعيد الأشقرى المقرى النحوى، مات سنة خمس وخمس مئة. ومحمّد بن علىّ الشاطى ابن الصيقل، ومحمّد بن سليمان النفزى بن أخت غانم، ومحمّد بن عيسى التجيبى القاضى، إلى غيرهم من جملة أحد وثلاثين شيخًا فى هذا الحرف، منهم المازرى والطرطوشى، لكن بالإجازة له، إذ لم يلقهما كما سيأتى قريبًا.

ومنهم فى حرف العين:

أبو محمّد عبد الله بن السيد البطليوسى، وقد تقدم ذكره. وأبو محمّد ابن عتاب الجذامى، الإمام الشهير، فقيه قرطبة وإمامها، وشيخ زمانه فى العلم الموروث كابراً عن كابر، توفى سنة ثمان وخمس مئة. وأبو محمّد عبد الله بن أبى جعفر، وهو عبد الله بن محمّد بن عبد الله الخشنى. وعبد الرحمن بن محمّد السبتى ابن العجوز، وعبد الله بن محمّد بن أيوب الفهرى. وعبد الرحمن بن محمّد بن بقى. وعلىّ بن أحمد الأنصارى بن الباذش. وأبو الحسن علىّ بن مشرف «اسم مفعول شُرِّف بالتشديد» وهو ابن

(١) الغنية ص ٤٥.

مُسَلَّم «مفعول، سُلِّم مشدد» ابن أحمد بن عبد المنعم بن عبد الرحمن الأنماطى «بفتح الهمزة»، الإسكندرانى. وأبو محمّد عبد الله بن أحمد العدل «بالفتح وسكون الدال» التميمى ومات بسبتة عام أحد وخمس مئة. وعلى بن عبد الرحمن التجيبى بن الأخضر؛ إلى غيرهم من جملة سبعة وعشرين فى هذا الحرف.

ومنهم فى حرف الغين:

غالب بن عطية المحاربى، وقد تقدم.

ومنهم فى حرف السين:

سراج بن عبد الملك بن سراج أبو الحسن. وأبو بحر سيفان بن العاصى الأسدى، مات بقرطبة لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة عشرين وخمس مئة، وولد سنة تسع وثلاثين، وقيل أربعين وأربع مئة، وفى سنة وفاته المذكورة توفى القاضى أبو بكر الطرطوشى رحمه الله، وفيها أيضًا توفى الإمام المؤرخ الشيخ الراوية، أبو مروان حيان بن حيان رحمه الله.

وشيوخ القاضى أبى الفضل فى هذا الحرف خمسة.

ومنهم فى حرف الشين:

شريح بن محمّد الرعينى الإشبيلى.

ومنهم فى حرف الهاء:

أبو الوليد هشام بن أحمد بن العواد، الفقيه المشهور، ولد سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة، وتوفى سنة تسع وخمس مئة.

وهشام بن أحمد الهلالى الغرناطى، وقد تقدم ذكره.

ومنهم فى حرف الياء:

يونس بن محمّد بن مغيث بن الصفار.

ويوسف بن موسى الكلبى[1]، سمع القاضى أبو الفضل منه أرجوزته.

وهو الضرير الأديب النحوى المتكلم الزاهد. وأصله من سرقسطة، وسكن مراكش، وبها توفى سنة عشرين وخمس مئة. وهو من تلاميذ أبى بكر محمّد ابن الحسن المرادى الحضرمى. والمرادى هذا أوّل من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب القصى، وسكن بأغمات؛ فلما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حمله وولاه القضاء، فمات بأركى[2] من صحراء المغرب سنة تسع وثمانين وأربع مائة؛ فخلفه أبو الحجاج يوسف فى علوم الإعتقادات، وغلب عليه الزهد؛ وله أرجوزة صغرى فى علم الاعتقاد، قرأها عليه القاضى أبو الفضل عياض، كما ذكرناه.

قال عياض: وأجازنى أرجوزته الكبرى وجميع تآليفه ورواياته وكتاب التحرير لشيخه المرادى؛ وعن المرادى كان أكثر أخذ أبى الحجاج.

قال عياض رحمه الله تعالى: أنشدنى لشيخه أبى بكر المرادى[3] رحمه الله تعالى:

علمى بقبح المعاصى حين أركبها ... يقضى بأنى محمول على القدر
لو كنت أملك نفسى أو أصرفها ... ما كنت أطرحها فى لجة العذر
كلفت فعلا ولم أقدر عليه ولم ... أكن لأفعل أفعالا بلا قدر
وكان فى عدل ربى أنْ يعذبنى ... فلم أشاركه فى نفع ولا ضرر
إن شاء نعمنى أَوْ شاء عذبنى ... أو شاء صورنى فى أقبح الصور

(١) الغنية ص ١٦٥.

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «أركر».

(٣) الغنية ص ١٦١.

يا رب عفوك عن ذنــب قضيت به عدلا على فــهب لى صفح مقــتدر

* * *

ومن شيوخ القاضى عياض رحمه الله تعالى فى حرف الياء:

يوسف بن عبد العزيز بن عديس الطليطلى، رحم الله جميعهم.

* * *

وممن أجاز القاضى أبا الفضل عياضا ولم يلقه:

الشيخ الأستاذ أبو بكر محمّد بن الوليد الطرطوشى[1]، الطائر الصيت، الشهير الذكر، وقد تقدم ذكر وفاته.

وهو محمّد بن الوليد بن محمّد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهــرى الطرطوشى بضم الطاءين المهملتين وقــد تفتح الطاء الأولى أصله من طرطوشة بلاد الأندلس ويعرف بــابن أبى رندقة [براء مهملة مفــتوحة ثم نون ساكنة ثم دال مهملة مفتــوحة ثم قاف كنيته أبو بكر وهو المعنى][2] بقول ابن الحاجب فى مخــتصره الفقهى فى باب العــتق: «وقال الاستاذ: ومقــتضاه إذا باعه قبل التقويم أنْ يقوم».

صحب القاضى أبا الوليد الباجى بسر قسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمــع منه وأجازه، وقــرأ الفرائض والحــساب بوطنه، قــرأ الأدب على أبى محمّد ابن حزم بمدينة إشبيلية.

ثم رحل إلى المشرق سنة ست وسبعــين وأربع مئة، وحج ودخل بغداد والبصرة فتفقه عند أبى بكر الشاشى وأبى أحمد الجرجانى، وسمع فى البصرة

(١) الغنية ص ٣٦، والصلة لابن بشكوال ص ٥٤٥.

من أبى علىّ التسترى، وسكن الشام مدة ودرس بهـا، وكان إماما عالما عاملا زاهدا متواضعا دينا ورعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها بالسير.

ومن كلامه رضى الله عنه: إذا عرض لك أمـران: أمر دنيا وأمر أخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى.

وله عدة تآليف منها مختصر تفسـير الثعلبى، والكتاب الكبير فى مسائل الخلاف، وكتـاب فى تحريم جبن الروم، وكتـاب سراج الملوك، وهو من أنفع الكتب فى بابه وأشهرها، وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها، وكتاب شرح رسالة ابن أبى زيد.

ولد سنة إحـدى وخمـسين وأربع مـئة تقـريبـا، وتوفى فى ثلث الليل الأخير من لـيلة السبت لأربع بقين من جمـاد الأولى، وقال ابن بشكوال فى الصلة: فى شعبـان سنة عشرين وخمس مـئة كما تقدم، بثـغر الإسكندرية، وصلى عليه ولده محمّد، ودفن قبلى الباب الأخضر. رحمه الله ورضى عنه.

وقال ابن خلكان فى حـقه ما نصـه: محمّـد بن الوليد بن محـمّد بن خلف ابن سليـمان، [بن أيوب][1] القـريشى الفهـرى الأندلسى الطرطوشى المالكى المعروف بابـن أبى رندقة بالراء المهملة المفـتوحة وتسـكين النون، إمام ورع، وأديب متقلل. وكان يقول: إذا عرض لك أمران: أمر أخرى وأمر دنيا فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى[1].

وله طريقة فى الخلاف وله أشعار منها[2]:

(١) ابن خلكان ٤/ ٢٦٢ وما بين حاصرتين منه.

(٢) ابن خلكان ٤/ ٢٦٣، ونفح الطيب ٢/ ٨٦.

إذا كنت فى حاجة مرسلا وأنت بأنجازها مغرم
فأرسل بأبله خلابة به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سلوى رسول يقال له الدرهم

قال الطرطوشى: كنت ليلة نائما فى البيت المقدس إذ سمعت فى الليل صوتا حزينا ينشد(١):

أخوف ونوم إن ذا لعجيب ثكلتك من قلب فأنت كذوب
أما وجلال الله لو كنت صادقا لما كان للإغماض فيك نصيب

قال: فأيقظ النوام وأبكى العيون.

وكان الطرطوشى ينشد(٢):

إنَّ لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

ودخل الطرطوشى على الأفضل بن أمير الجيوش فوعظه وقال: إنَّ الأمر الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإنَّ الله عز وجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، واعلم أنَّ الله عز وجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب،

(١) ابن خلكان ٤/ ٢٦٤.
(٢) الصلة لابن بشكوال، ص ٥٤٥، وابن خلكان ٤/ ٢٦٢، ونفح الطيب ٢/ ٨٦.

ورفع عنه حساب ذلك أجمع فقال عز من قائل: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص] فما عد ذلك نعمة كما عدد تموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أنْ يكون استدراجا من الله عز وجل فقال: ﴿... هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ... ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] فافتح الباب، وسهل الحجاب وانصر المظلوم، وكان إلى جانب الأفضل رجل نصرانى فأنشده[1]:

يا ذا الذى طاعته قربة وحقه مفترض واجب
إنَّ الذى شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى ذلك النصرانى فأقامه الأفضل من موضعه.

وتوفى الطرطوشى سنة عشرين وخمس مئة بالإسكندرية.

انتهى كلام ابن خلكان. وذكرته برمته وإنْ كان بعضه قد تقدم تكميلا للغرض، وقد يقع لى مثل هذا فى هذا الموضع كثيرا، والقصد به التقوية لما تكرر معه، أو غير ذلك كارتباط الكلام بعضه ببعض، وعلى الله قصد السبيل.

* * *

وممن أجاز القاضى عياضا ولم يلقه:

الشيخ الإمام المجتهد أبو عبد الله المازرى[2]، محمّد بن علىّ بن عمر ابن محمّد التميمى المازرى - بفتح الزاى - عند الأكثر، وجوز كسرها جماعة نسبة إلى مازر بليدة بجزيرة صقلية أعادها الله. أخذ عن الشيخين أبى الحسن اللخمى وأبى محمّد بن عبد الحميد القروى المعروف بالصائغ، وكان إماما

(١) ابن خلكان ٤/ ٢٦٣، ونفح الطيب ٢/ ٨٧.
(٢) الغنية ص ٣٨.

محـدثا، وهو أحـد الأئمة الأعـلام المشار إليـهم فى حفظ الحـديث والكلام عليه، عمدة النظار، وتحفة الأمصـار، المشهور فى الآفاق والأقطار، حتى عد فى المذهب إمامـا، وملك من مسائله زمامـا. وله تآليف مفيدة عظيـمة النفع منها: كتاب المُعْلِم بفوائد مسلم، وكتـاب التعليقة على المدونة، وكتاب شرح التلقين، وكتـاب الرد على الإحياء للغزالى المسمـى بكتاب الكشف والإنباء، عن المترجم بالإحيـاء وكشف الغِطا عن لمس الخَطا، وكتاب إيضـاح المحصول من برهان الأصول، وتعـليقة على أحـاديث الجوزقى، وله أيضًـا إملاء على شىء من رسـائل إخوان الصـفـا، سأله السلطان تميـم عنه، وكتـاب النكت القطعـية فى الرد على الحـشـوية والذين يقولون بقـدم الأصوات والحـروف، وفتاوى.

توفى ثامن عشر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخـمس مئة، وقيل يوم الاثنين ثامن الشهـر المذكور بالمهدية، وعـمره ثلاث وثمانون سنة رحـمه الله ورضى عنه.

وحكى أنَّ بعض طلبة الأندلس ورد على المهدية، وكـان يحضر مجلس المازرى، ودخل شعاع الشـمس من كوة فوقع على رجل الشـيخ المازرى فقال الشيخ: هذا شعاع منعكس فذيله الطالب المذكور حين رآه متزنا فقال:

هذا شـــعـــاع منـعكس لـعلـة لا تلـتـــــبس
لّمـا رآك عـنصـــــــرا من كل عـلم ينبـــجس
أتى يـمـد ســـاعـــدا من نور عـلم يقـتـبس

وأظن أنى رأيت هذه الحكاية فى نظم الدر والعقيـان للشيخ الحافظ أبى عبد الله التلمسانى، فلتراجع ثَمَّ لأنى نقلتها بالمعنى.

***

وممن أجاز القاضى عياض ولم يلقه:

الشيخ الحافظ إمام المحدثين أبو الطاهر السلفى أحمد بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن إبراهيم سلفة الأصبهانى الملقب صدر الدين[1].

قال ابن خلكان: هو أحد الحفاظ المكثرين. رحل فى طلب الحديث ولقى أعيان المشايخ وكان شافعى المذهب. ورد بغداد واشتغل بها على الكيا [أبى الحسن على الهراسى][2]، فى الفقه وعلى الخطيب أبى زكريا يحيى بن علىّ التبريزى اللغوى باللغة، وروى عن أبى محمّد جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأماثل، وجاب البلاد، وطاف الآفاق، ودخل الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمس مئة فى ذى القعدة، وكان قدومه إليها فى البحر من مدينة صور، وأقام بها، وقصده الناس من الأماكن البعيدة، وسمعوا عليه، وانتفعوا به، ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله. وبنى له العادل أبو الحسن علىّ بن السلار وزير الظافر العبيدى صاحب مصر فى سنة ست وأربعين وخمس مئة مدرسة بالثغر المذكور، وفوضها إليه وهى معروفة به الآن. وأدركت جماعة من أصحابه بالشام والديار المصرية، وسمعت عليهم وأجازونى، وكان قد كتب الكثير، ونقلت من خطه فوائد جمة، ومن جملة ما نقلت من خطة لأبى عبد الله محمّد بن عبد الجبار الأندلسى من قصيدة:

لولا اشتغالى بالأمير ومدحه ... لأطلت فى ذاك الغزال تغزلى[3]

لكن أوصاف الجلال عذبن لى ... فتركت أوصاف الجمال بمعزل

---

(١) الغنية ص ٧٠، ووفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥.

(٢) التكملة عن ابن خلكان ١/ ١٠٥.

(٣) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥.

ونقلت من خطه أيضًا لبثينة [صاحبة جميل ترثيه][1]:

وإنَّ سُلُوِّى عن جـمـــيل لسـاعـة من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سـواء علينا يا جمـيل بن مـعمـر إذا مت بأســـاء الحـيـــاة ولينهـــا

وكان كثيرا ما ينشد[2]:

قـــالوا نـفـــوس الدار سكـانهـــا وأنتم عـندى نفـــوس الـنفـــوس

وأماليه وتعاليقه كثيرة، والاختصار بالمختصر أولى.

وكانت ولادته اثنتين وسبعين وأربع مئة تقريبا بأصبهان، وتوفى ضحوة نهار الجـمعة وقيل ليلة الجـمعة خامس شـهر ربيع الآخر سنة ست وسبـعين وخمس مئة بثغر الإسـكندرية. ودفن فى وعلة، وهى مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر، فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشى وغيره، وهى - بفتح الواو وسكون العين المهملة وبعدها لام ثم هاء - ويقال إنَّ هذه المقبرة منسوبة إلى عبـد الرحمن بن وعلة السـبئى المصـرى، صاحب ابن عـباس رضى الله عنهما. وقيل غير ذلك رحمه الله تعالى آمين.

قلت[3]: وجدت العلماء المحدثين بالديار المصرية، من جملتهم الحافظ زكى الدين أبو محـمّد عبد العظيم بن عـبد القوى المنذرى المحـدث، محدث مصر فى زمانه، يقولون فى مـولد الحافظ السلفى هذه المقالة. ثم وجدت فى كتاب: زهر الرياض المفصح عن المقاصد والأغراض تأليف الشيخ جمال الدين

(١) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٦.

(٢) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٦.

(٣) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٦.

أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى الفضل عبد المجيد بن إسماعيل بن حفص الصفراوى الإسكندرى، أنَّ الحافظ السلفى المذكور وهو شيخه كان يقول: مولدى بالتخمين لا باليقين سنة ثمان وسبعين، فيكون مبلغ عمره على مقتضى ذلك ثمانيا وتسعين سنة. هذا آخر كلام الصفراوى المذكور.

ورأيت[1] فى تاريخ الحافظ محب الدين محمّد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادى، ما يدل على صحة ما قاله الصفراوى فإنه قال: قال عبد الغنى المقدسى: سألت الحافظ السلفى عن مولده فقال: أنا أذكر قتل نظام الملك فى سنة خمس وثمانين وأربع مئة، وكان لى من العمر حدود عشر سنين.

قلت[2]: ولو كان مولده على ما يقوله أهل مصر إنَّه فى سنة اثنتين وسبعين، ما كان يقول أذكر قتل نظام الملك فى سنة خمس وثمانين وأربع مئة، فإنه على ما يقولونه قد كان عمره ثلاث عشرة سنة، أو أربع عشرة سنة، ولم تجر العادة أن من يكون فى هذا السنة يقول: أنا أذكر القضية الفلانية، وإنما يقول ذلك من يكون عمره تقديرا أربع أو خمس أو ست سنين.

فقد ظهر[3] بهذا أنَّ قول الفراوى تلميذه أقرب إلى الصحة، وقد سمع منه أنَّه قال: مولدى فى سنة ثمان وسبعين، وليس الصفراوى ممن يشك فى قوله ولا يرتاب فى صحته، مع أننا ما علمنا أنَّ أحدا منذ ثلاث مئة سنة إلى الآن بلغ المائة، فضلا عن أنَّه زاد عليها، سوى القاضى أبى الطيب طاهر بن عبد الله الطبرى، فإنه عاش مئة سنة وسنتين، كما سيأتى فى ترجمته.

---

(١) وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٧.

(٢) ابن خلكان ج١ ص ١٠٧.

(٣) ابن خلكان ج١ ص ١٠٧.

ونسبة السلفى[1] إلى جده إبراهيم سلفة بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفى آخره الهاء - وهو لفظ عجمى ومعناه بالعربى ثلاث شفاه لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة، فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية، والأصل فيه سلبة، بالباء، فأبدلت بالفاء.

انتهى كلام ابن خلكان.

قلت: ولا يخلو ما ذكره من بحث لأن السلفى قال: أنا أذكر قتل نظام الملك وأنا فى حدود العشر سنين، وبحث ابن خلكان يقتضى أنَّه ابن ست سنين ونحوها، بل قد يقال: إنَّ قول السلفى وكان فى حدود عشر سنين لا ينافى قول الآخرين لما جرت العادة به من العلماء من إلغاء الكسر الزائد. سلمنا عدم ذلك، فلا دليل فيه لواحد منهما فتأمله منصفا، والله سبحانه أعلم.

وكأن ابن قنفذ اعتمد فى وفاته على قول المصريين فى مولد أبى الطاهر السلفى فلذا قال ما نصه: «وتوفى القاضى بغرناطة أبو عبد الله بن محمّد بن القاضى عياض سنة خمس وسبعين وخمس مئة، وعرف فى تاريخه بأبيه، وفى التى تليها توفى الشيخ أبو الطاهر السلفى وعمره مئة وأربع سنين وكان أجاز لكل من أدركته حياته. وسلفه بكسر السين المهملة: قرية فى المشرق».

انتهى.

وما قاله فى سلفه مخالف لما سبق قريبا لابن خلكان ولعل قول ابن خلكان هو الصواب، والله تعالى اعلم.

ومن مشهور نظم السلفى رحمه الله قوله:

---

(١) ابن خلكان ج١ ص ١٠٧.

ليس على الأرض فى زمانى من شانه فى الحديث شانى
علما ونقدا ولا علوا فيه على رغم كل شانى

ومن ذلك قوله رحمه الله:

بالله يا معشر أصحابى اغتنموا علمى وآدابى
إنَّ نذير الموت جاء وقد حلف لا يرحل إلاّ بى

ومن نظمه رحمه الله ما أجاب به القاضى عياضا حين استجازه بقصيدة على روى القاف أولها:

أبا طاهر خذها على البعد والنوى تحية مشتاق لذكراك شيق

فأجابه أبو الطاهر بقوله:

أتانى نظم الألمعى الموفق يميس اختيالا بين غرب ومشرق

وسيأتيان معال عند تعرضنا لذكر نظم عياض رحم الله الجميع.

***

أقول: ولم يزل الفضلاء من الأئمة، والنبهاء من أعلام هذه الأمة، يستجيزون الأشياخ الأخيار، عند تعذر اللقاء وبعد الديار، ولو تتبعنا ذكر من قعل ذلك لضاق عنه هذا الموضوع، ولما احتمله هذا المجموع. وقد استجاز الإمام الشهير الأديب الكبير، الشيخ العلامة أبو الحسن حازم صاحب المقصورة، وجية الدين منصورًا، فكتب إليه الوجيه رحمه الله بقوله:

إنى أجزت لحازم بن محمّد صدر الأفاضل والإمام السيد
مجموع ما رُوِّيتُه فَرَوَيْتُه عن ألف شيخ من رواة المسند

obeikandl.com

فى مصرها مع شامها وعراقها وحجازها من متهم أو منجد
وجميع ما صنفته وجمعته فى علم فقه الشافعى محمّد
فَلْيَرْوِ عنى ما رويت رواية مشروطة بتوثيق وتشدد
وليبق فى روض العلوم منعما بسعادة وسيادة وتأيد

***

وإذا جرى ذكر حازم فلا بد أنْ نورد بعض التعريف به فنقول:

قال السيوطى فى الطبقات[1]:

حازم بن محمّد بن حسن بن محمّد بن خلف بن حازم الأنصارى القرطاجنى النحوى، أبو الحسن، شيخ البلاغة والأدب.

قال أبو حيان: كان أوحد زمانه فى النظم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان. روى عن جماعة يقاربون الألف، وروى عنه أبو حيان، وابن رشد، وذكره فى رحلته فقال: حبر البلغاء وبحر الأدباء ذو اختيارات فائقة، واختراعات رائقة، لا نعلم أحداً ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم، من منقول ومبتدع، وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمتفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها، فهو حَمّاد رواياتها وحمّال أوقارها، يجمع إلى ذلك جودة التصنيف وبراعة الخط، ويضرب بسهم فى العقليات والدراية أغلب عليه من الرواية.

صنف: سراج البلغاء فى البلاغة، وكتابًا فى القوافى، وقصيدة فى

(١) بغية الوعاة ج١ ص ٤٧٢ (ط. الخانجى).

obeikandl.com

النحـو على روى الميم، ذكـر منهـا ابن هـشام فـى المغنى أبيـاتا فى المسـألة الزنبورية، وقد ذكرناها فى الطبقات الكبرى مع أبيات أخر.

مـولده سنة ثمان وست مـئة ومـات ليلة السـبت الرابع والعشـرين من رمضان سنة أربع وثمانين وست مئة.

ومن شعره:

من قـال حـسـبى من الورى بشـر فـحـسـبى الله حـسـبى الله

كـم آيـة للإلـه شـاهـدة بـأنـه لا إلـه إلاّ هـو

انتهى كلام السيوطى.

ولنزد نحن مـا أمكننا، حيث لـم يوف السيـوطى بحقـه فى الطبقـات الصغرى، لأنهـا مبنية على الاختصار، ولم نقف على الطبـقات الكبرى التى أحال عليها؛ فنقول:

قـال بعض المؤرخـين: هو حـازم بن مـحـمّـد بن الحـسن بن حـازم الأنصارى، فجعل والد الحـسن حازمًا، وجعله السيوطى مـحمدًا، فلا ندرى هل هذا من النسبة إلى الجد، فيرجع مـع ما عند السيوطى إلى وفاق، أو هما مختلفان؟

القرطاجنى: منسوب إلى قرطاجنة من سـواحل كورة تدمير، من شرقى الأندلس. وهو خاتمة شـعراء الأندلس الفحول، مع تقـدمه فى معرفـة لسان العرب وأخـبارها، ونزل إفريقـية بعد خـروجه من بلده فطار له بهـا صيت، وعُـمِّر إلى أنْ مـات بتـونس، حضـرة ملوكـها، ليلة الـرابع والعشـرين من

رمضـان، من سنة أربع وثمانين وست مـئة. وفى بعض المجامـيع الأدبية من تأليف ابن المرابط نزيـل تونس، أنَّه كان فى حـضـرة مراكـش أيام الرشيـد، انتهى.

قلت: وله فى الرشيد أمداح كثيـرة، أنشدها فى الإشادة، ومدح الأمير أبا زكريا صـاحب إفريقـية، وولده أبا عبـد الله المتنصر، وله ألف المقـصورة المشهورة، وقصر محاسنها على مدحه، ومدح أخاه أبا يحيى.

ومطلعها:

لله مـــا قـــد هجت يا يـوم النوى على فـؤادى من تـبـاريح الجـوى

قلت: قد كنت ضمنت مطلعها باكتفاء وتورية فقلت:

لم أنس يـومًـا لـلنوى عـــيـــوبه فى نهـر فاس شـجن هاج الجـوى

فـــقلت إذ ذكـــرنـى مـــعـــاهدًا «لله مـا قـد هجـت يا يوم النوى»

ومقصورته تدل على اطلاعه، وصدرها بخطبة بليغة جدًا، وتولى شرح هذه المقـصورة الشـيخ أبو القاسم الشـريف الحسنى القـاضى كان بغـرناطة، وسمى شرحـه هذا رفع الحجب المستورة عن محاسن المقـصورة، وملأه بكل غريبـة، وقد طالعـته غـير مـرة. وقد ألف الإمـام المكودى شارح الألفـية، مقصورة بديعة نبوية؛ وعاب على ابن دريد وحازم جعلهما مقصورتيهما مدحًا فى بنى الدنيا، فكان من جملة أبياتها:

فـحـــازم قـد عـد غـيـــر حـازمٍ وابن دريد لـم يفـــده مـــا درى

وقد تولى شرح مقـصورة المكودى بعض أصحابه، وهو الكاتب الأديب أبو عبد الله المكلانى أعانه الله تعالى.

ومن بديع نظمه رحمه الله قصيدة جيمية، غريبة المنزع، لها صيت عظيم عند الحذاق من أهل الأدب، والنحارير من الفضلاء، عارض بها فى المعنى رائية ابن عمار الوزير؛ للمعتمد بن عباد. وفضل غير واحد هذه الجيمية الحازمية، على تلك الرائية العمارية[1]:

أدر المدامة فالنسيم مؤرج ... والروض مرقوم البرود مدبجُ
والأرض قد لبست برود جمالها ... فكأنما هى كاعب تتبرجُ
والنهر مما ارتاح معطفه إلى ... لقيا النسيم عبابه متموجُ
يمسى الأصيل بعسجدى شعاعه ... أبدًا يوشى صفحه ويدبجُ
وتروم أيدى الريح تسلب ما اكتسى ... فتزيده حسنًا بما هى تنسجُ
فارتح لشرب كئوس راح نورها ... بل نارها فى مائها تتوهجُ
واسكر بنشوة لحظ من أحببته ... أو كأس خمر من لماه تمزجُ
واسمع إلى نغمات عود تَطَّبِى ... قلب الخلى إلى الهوى وتهيجُ
بم وزير يسعدان مثانيًا ... ومثالثًا طبقاتها تتدرجُ
من لم يهيج قلبه هذا فما ... للقلب منه محرك ومهيجُ
فأجب فقد نادى بألسن حاله ... للأنس دهر للهموم مفرجُ
طربت جمادات وأفصح أعجم ... فرحًا وأصبح من سرور يهزجُ
أفيفضل الحى الجماد مسرة ... والحى للسراء منه أحوجُ
ما العيش إلاّ نعمت به وما ... عاطاك فيه الكأس ظبى أدعجُ

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٢٣.

ممن يـروقك مـنه ردف مـــــردف عبل وخـصر ذو اخـتصـار مدمجُ

فـــــإذا نظـرت لطـرة ولغـــــرة ولصـــفـحـــة منه بدت تتـــأججُ

أبقـــيت أن ثـلاثهن ومـــا غـــدا من تحـــتـهـــا ينآد أو يـتـمـــوجُ

ليل عـلى صـــبح على بـدر على غـصن تحـــمله كـثـــيب رجـرجُ

كـأس ومـــحـبـوب يظل بـلحظه قلب الخلى إلى الهـوى يسـتـدرجُ

يا صاح مـا قلبى بصاح عن هوى شـيـئـين بينهـمـا المنـى تسـتنتجُ

وبمهجـتى الظبى الذى فى أضلعى قـد حل وهـو يشـبـهـــا ويؤججُ

ناديت حـادى عـيـسـه يوم النوى والعـــيس تحـدى والمطايـا تحـدجُ

قف أيهـا الحـادى أودع مـهـجـة قـد حـازهـا دون الجـوانح هودجُ

لما تواقـــفـنا وفى أحـــداجـــهـــا قـمـــر منيـر بـالهـلال مـتـوجُ

ناديتـــهم قـــولوا لبـــدركم الذى بضـيـائه تسـرى الركـاب وتدلجُ

يحـــيـــا العلـيل بلفظـةٍ أو لحظةٍ تطفى غلـيـلاً فى الحـشـا يتـأججُ

قـالوا نخـاف يزيد قلبك لاعـجًـا فـأجـبـتـهم خلوا اللـواعج تلعجُ

وبكيت واسـتبكيت حـتى ظل من عـبـــراتنا بحـــر ببـحـر يـمـزجُ

وبقـيت أفـتح بـعـدهم باب المنى مـــــا بيـننـا طورا وطـورا يرتجُ

وأقول يا نفس اصبـرى فعسى النوى بصـــبـاح قـــرب ليلهـــا يتـــبلجُ

فـتـرقب السـراء من دهر شـجـا والدهر من ضـــد لضـد يـخـرجُ

وترج فـــــرجـــــة كل هـم طارقٍ فلـكل هم فى الـزمـــان تفـــرجُ

وتذكرت بهذه الجيمية قصيدة ابن قلاقس الإسكندرى، رحمه الله تعالى[1]:

عرضت لمعترض الصباح الأبلج ... حوراء فى طرف الظلام الأدلجِ
فتمزقت شية الدجا عن غرتى ... شمسين فى أفق وكلة هودجِ
ووراء استار الحمول لواحظ ... غازلن معتدل الوشيج الأعوجِ
من كل مبتسم السنان إذا جرى ... دمع النجيع من الكمى الأهوجِ
ولقد صحبت الليل قلص برده ... لعباب بحر صباحه المتموجِ
وكأن منتثر النجوم لآلئٌ ... نظمت على صرح من الفيروزجِ
وسهرت أرقب من سهيل خافقًا ... متفردًا وكأنه قلب الشجى
واستعبرت مقل السحاب فأضحكت ... منها ثغور مفوف ومدبجِ

***

وابن قلاقس هذا له فى النظم الباع المديد؛ ومن محاسنه قوله رحمه الله تعالى:

سددوها من القلوب رماحا ... وانتضوها من الجفون صفاحا
يا لها حالة من السلم حالت ... فاستحالت ولا كفاح كفاحا
صح إذ أذرت العيون دماءً ... أنهم أثخنوا القلوب جراحا
يا فؤادى وقد أخذت أسيرًا ... أتفطرت أم وضعت سلاحا
قل لأعتادك التى اقتسموها ... ضربوا فيك بالعيون قداحا

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٢٥.

عـجـبـا للجـفـون وهى مـراض كيف تستأسـر القلوب الصحـاحا
آه من مـــــوقـف يود بـه المغـــ ـرم لو مـات قـبـله فـاسـتـراحـا
حيث يخـشى أن ينظم اللثم عـقدًا فـيـه أو يعـقـد الـعناق وشـاحـا

❊ ❊ ❊

رجع إلى قول حازم رحمه الله تعالى:

فمن قوله من قصيدة:

فـتق النـسـيم لطائم الـظلمـاء عن مـسـكةٍ قطرت مـع الأنداء
وغـدا الصـباح يفض خـاتم عنبـر بالشـرق عن كـافـورةٍ بيـضـاء
والكوكب الـدرى يزهو سـابـحـا فى مـائه كـالدرة الـزهراء
وكـأنما ابن ذكـاء يذكى مـجـمـرًا منه يـفـيـد الـريح طيب ذكـاء

❊ ❊ ❊

وقال سامحه الله من قصيدة فى المستنصر:

أمن بارق أورى بجنح الدجى سـقطا تذكـرت من حل الأبارق فالسـقطا
وبان ولكـن لم يبن عنـك ذكـره وشط ولكن طيـفـه عنك مـا شطا
حبيب لَوَ انَّ البـدر جاراه فى مدى من الحسن لاستدنى مـن البدر واستبطا
سقى الله عيشا قد سقانا من الهوى كئوسا بمعسول اللمى خلطت خلطا

❊ ❊ ❊

وله مطلع قصيدة:

سلطان حسن عليه للصبا علم إذا رأته جيوش الصبر تنهزم

❊ ❊ ❊

وقال رحمه الله يصف وردة بيضاء:

ومبيضة الأثواب تُدعى بوردةٍ تقل لها الأشباه عند التماسها

أنافت على ساق لتشرب عندما أشارت لها كف البروق بكاسها

كجاريةٍ قامت ببيض غلائلٍ مرفعةٍ أذيالها حول رأسها

❊ ❊ ❊

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى تضمينه قصيدة امرئ القيس، وصرف معناها إلى مدح المصطفى ﷺ، وهى من غر القصائد[1]:

لعينيك قل إنَّ زرت أفضل مرسل «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»

وفى طيبة فانزل ولا تغش منزلا «بسقط اللوى بين الدخول فحومل»

وزر قد طالما طاب نشرها «لما نسجتها من جنوب وشمأل»

وأثوابك اخلع محرما ومصدقا «لدى الستر إلاّ لبسة المتفضل»

لدى كعبة قد فاض دمعى لبعدها «على النحر حتى بل دمعى محملى»

فيا حادى الآبال سربى ولا تقل «عقرت بعيرى يامرأ القيس فانزل»

فقد حلفت نفسى بذاك وأقسمت «على وآلت حلفة لم تحلل»

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٢٠.

obeikandi.com

فـــقلت لهـــا لا شك أنـــى طائع «وأنك مهمـــا تأمرى القلب يفعل»
وكم حملت فى أظهر العزم رَحلها «فيـــا عجـــبا من كـــورها المتحـــمل»
وعاتبت العـــجز الذى عاق عزمـــها «فقالت لك الويلات إنك مرجلى»
نبى هدى قـــد قـــال للكـــفـــر نوره «إلاّ أيّهـــا الليـــل الطويل ألا انجل»
تلا ســـورًا مـــا قـــولهـــا بمعـــارضٍ «إذا هى نـــصـــتـــــه ولا بمعـــطل»
لقـــد نزلت فى الأرض ملـــة هديه «نزول اليمانى ذى العياب المحمل»
أتت مغـــربا من مشـــرق وتعرضت «تعـــرض أثناء الـــوشـــاح المفـــضل»
فـــفازت بلاد الشـــرق من زينة بهـــا «بشـــق وشق عندنـــا لم يحـــــول»
فـــصـــلى عليـــه الله مـــا لاح بارق «كلمع اليـــدين فـــى حـــبى مكلل»
نبـــى غـــزا الأعـــــداء بين تـــلائع «وبين إكـــام بعـــد مـــا مـــتـــأمل»
فكم ملـــك وفـــاه فى زى منـــجـــدٍ «بمنجـــرد قـــيـــد الأوابد هـــيـــاكل»
وكم من يمان واضح جـــاءه اكتسى «بضاف فويق الأرض ليس بأعزل»
ومن أبـــطاحى نـــيط منـــه نجـــــاده «بجيـــد معم فى العـــشيرة مـــخول»
أزالوا ببـــدر عن ســـروجـــهم العـــدا «كـــمـــا زَلَّت الصـــفـــــواء بالمتنزل»
ونادوا ظبـــاهم لا يفـــتك فـــتى ولا «كـــبـــيـــر أناس فـــى بجـــادٍ مـــزمل
وفض جموعـــا قد غدا جامـــعًا بها «لنا بطـــن ذى قـــفـــــاف عـــــقنقل»
وأحـــموا وطيـــسًـــا فى حنين كـــأنه «إذا جاش فيه حـــميه غلى مرجل»
ونادوا بنات النبع بالـــنصر أثمـــرى «ولا تبـــــعـــدينا من جنـــاك المعلل»

وممن له سددت سهمين فاضربى «بسهميك فى أعشار قلبٍ مقتل»
فما أغنت الأبدان درع بها اكتست «ترائبها مصقولة كالسجنجل»
وأضحت لواليها ومالكها العدا «ويقولون لا تهلك أسى وتجمل»
وقد فر منصاع كما فر خاضب «لدى سمرات الحى ناقف حنظل»
وكم قال يا ليل الوغى طلت فانبلج «بصبح وما الإصباح منك بأمثل»
فليت جوادى لم يسر بى إلى الوغى «وبات بعينى قائما غير مرسل»
وكم مرتق أوطاس منهم بمسرجٍ «متى ما ترق فيه تسهل»
وقرطه خرصا كمصباح مسرج «أهان السليط فى الذبال المفتل»
فيزهو لهاد فوق هاديه طرفه «بناظرة من وحش وجرة مطفل»
ويسمع من كافورتين بجانبى «أثنيت كقنو النخلة المتعثكل»
ترفع أنَّ يعزى له شد شادن «وإرخاء سرحان وتقريب تتفل»
ولكنه يمضى كما مر مزبد «يكب على الأذقان دوح الكنهبل»
ويغشى العدا كالسهم أو كالشهاب أو «كجلمود صخرٍ حطه السيل من عل»
جياد أعادت رسم رستم دارسا «وهل عند رسم دارس من معول»
وريعت بها خيل القياصر فاختفت «جواهر فى صرة لم تزيل»
سبت عربا من نسوة العرب تستبى «إذا ما اسبكرت بين درع ومجول»
وكم من سجايا الفرس والصفر أسهرت «نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل»
وحُزْنَ بدورًا من ليالى شعورها «تضل المدارى فى مثنى ومرسل»
وأبقت بأرض الشام هاما كأنها «بأرجائها القصوى أنابيش عنصل»

وما جف من حب القلوب بغورها «وقيعانها كأنه حب فلفل»

لخضراء ما دبت ولا نبتت بها «أساريع ظبى أو مساويك إسحل»

شدا طيرها فى مثمرى ذى أرومة «وساق كأنبوب السقى المذلل»

فشدت بروض ليس يذبل بعدها «بكل مغار الفتل شد بيذبل»

وكم هجرت فى القيظ تحكى دوارعًا «عذارى دوار فى الملاء المذيل»

وكم أدلجت والقَترُ[1] يهفو هزيرة «ويلوى بأثواب العنيف المثقل»

وخضن سيولا فضن بالبيد بعد ما «أثرن غبارًا بالكديد المركل»

وكم ركزوا ومحا بدعص كأنه «من السيل والغثاء فلكة مغزل»

فلم تبن حصنا خوف حصنهم العدا «ولا أطمًا إلاّ مشيد بجندل».

فهدت بغضب شد بعد صقاله «بأمراس كتان إلى صم جندل»

وجيش بأقصى الأرض ألقى جرانه «وأردف أعجازا وناء بكلكل»

يداك الصفا دكا ولو مر بعضه «وأيسره على الستار فيذبل»

دعا النصر والتأييد راياته اسحبى «على أثرينا ذيل مرطٍ مرحل»

لواء منير النصل طاوٍ كأنه «منارة ممسى راهب متبتل»

كأن دما الأعداء فى عذباته «عصارة حناء بشيب مرجل»

صحاب بروا هام العداة وكم قروا «صفيف شواة قدير معجل»

وكم أكثروا ما طاب من لحم جفرةٍ «وشحم كهذاب الدمقس المفتل»

وكم جبن من غبراء لم يسق نبتها «دراكا ولم ينضح بماء فيغسل»

(١) هذا الصواب من نفح الطيب ج٥ ص ٥٢٢ وتحرف فى المطبوع إلى: «القطر».

obeikandi.com

حكى طيب ذكراهم ومر كـفاحهم «مـداك عروس أو صـلابة حنظل»
لأمداح خـير الخلق قلبى قد صـبا «وليس صـبـاى عن هواها بمنسل»
فـدع من لأيام صلـحن له صـبـا «ولا سـيـــمـا يوم بـدارة جلجل»
وأصبـح عن أم الحويرث مـا سلا «وجـــارتـهـــا أم الربـاب بمأسل»
وكن فى مـديح المصطفى كمـديح «يقلب كـفـيـــه بخـيط مـوصل»
وأمل به الأخـرى ودنياك دع فـقد «تمتعت من لهـو بها غير مـعجل»
وكم لـنبـــيث للفـــؤاد منـابثٍ «نصـيح على تعذاله غـير مـؤتل»
ينادى إلـهى إنَّ ذنبى قـــد عـــدا «على بأنواع الـهـمـوم ليـبـــتلى»
فكن لى مجيرا من شـياطين شهوةٍ «على حـراص لو يشرون مقـتلى»
وينشـــد دنيـــاه إذا مـــا تـدللت «أفـاطم مهـلا بعض هذا التـدلل»
فـإن تصلى حـبلى بخيـر وصلتـه «وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى»
وأحـسن بقطع الحـــبل منك وبتـه «فـسلى ثيـابى من ثـيـابك تنسل»
أيا سـامعى مدح الـرسول تنشـقوا «نسـيم الصـبـا بريا القـــرنفل»
وروضـة حـمـد للنـبى مـحـمّـد «غـذاها نمير المـاء غـيـر المحلل»
ويا من أبى الإصغاء مـا أنت مهتدٍ «وما إنَّ أرى عنك العماية تنجلى»
فلو مطفلا انشدتهـا لفظها ارعوت «فـألهيـتهـا عن ذى تمائم محـول»
ولو سـمعـتـه عصـم طود أمالهـا «فأنزل منهـا العصم من كل منزل»

وقال رحمه الله فى مثل هذا الغرض، مؤديا من مدح رسول الله ﷺ المفترض، مضمنًا قصيدة أخرى لامرئ القيس[1]:

أقول لعزمى أو لصالح أعمالى «ألا عم صباحا أيّها الطلل البالى»
أما واعظى شيب سما فوق لمتى «سمو حباب الماء حالا على حال»
أنار به ليل الشباب كأنه «مصابيح رهبان تشب لقفال»
نهانى عن غى وقال منبها «ألست ترى السمار والناس أحوالى»
يقولون غيره لتنعم برهة «وهل يَعِمْنَ من كان فى العصر الخالى»
أغالط دهرى وهو يعلم أننى «كبرت وألّا يحسن اللهو أمثالى»
ومؤنس نار الشيب يقبح لهوه «بآنسة كأنها خط تمثال»
أشيخا وتأتى فعل من كان عمره «ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال»
وتشغفك الدنيا وما إن شغفتها «كما شغف المهنوءة الرجل الطالى»
ألا إنها الدنيا إذا ما اعتبرتها «ديار لسلمى عافيات بذى خال»
فأين الذين استأثروا قبلنا بها «لناموا فما إن من حديث ولا صال»
ذهلت بها غيا فكيف الخلاص من «لعوب تنسينى إذا قمت سربالى»
وقد علمت منى مواعيد توبتى «بأن الفتى يهذى وليس بفعال»
ومذ وثقت نفسى بحب محمّد «هصرت بغصن ذى شماريخ ميال»
وأصبح شيطان الغواية خاسئا «عليه القتام سيئ الظن والبال»

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥١٨.

ألا ليت شعرى هل تـقول عزائمى «لخـيلى كرى كـرة بعـد إجفـال»
فـــأنزل دارًا لـلرســـول نزيـلهـــا «قليل الهـموم مـا يبيت بأوجـال»
فطوبى لنفس جاورت خـير مرسلٍ «بيـثـرب أدنى دارهـا نظر عـالى»
ومن ذكـره عند الـقـبـول تعطرت «صـبا وشـمـال فى منازل قفـال»
جـوار رسـول الله مـجـد مـؤثل «وقد يدرك المجـد المؤثل أمثـالى»
ومن ذا الذى يثنى عنان السـرى وقد «كفـانى ولم أطلب قليل من المال»
ألم تر أنَّ الظبـية اسـتـشفـعت به «تميل عليـه هونة غـيـر مجـفـال»
وقـال لهـا عودى فـقـالت له نعم «ولو قطعوا رأسـى لديك وأوصالى»
فـعـادت إليه والهـوى قـائل لهـا «وكان عـدائى الوحش منى على بالى»
ويا لبـــعـيـر قـال أزمع مـــالكى «ليـقـــتلنى والمرء ليس بقـــتـال»
وثور ذبـيح بالرســـالة شـــاهدٍ «طويل القـرا والروق أخنس ذيال»
وحن إليـــه الجـذع حنة عـــاطش «لغـيث من الوسمى رائده خـال»
وأصلين من نـخل قـد التـأمـا له «بما احتسـبا من لين مسٍّ وتسهال»
وقـبضـة ترب منه ذلت لها الظبـا «ومـسنونة زرق كـأنيـاب أغـوال»
وأضحى ابن جحش بالعسيب مقاتلا «وليس بذى رمـح وليس بنبـــال»
وحسبك من صـوت الطفيل إضاءة «كمـصبـاح زيت فى قناديل ذبال»
وبذت به العـــجـفـاء كـل مطهم «له حجبات مـشرفات على الفال»
ويا خسـف أرض تحت باغيـه علا «على هيكل نهـد الجزارة جـوال»
وقـد أخـمـدت نار لفـارس طالما «أصابت غضى جَزْلاً وكف بأجزال»

obeikandl.com

أبان سبـيل الرشد إذ سـبل الهدى «يقلن لأهل الحلم ضلا بتـضلال»

لأحـمد خـير المرسلين انتـقيـتهـا «ورضت فذلت صـعبة أى إذلال»

وإنَّ رجـــائى أن ألاقـــيـــه غـــدًا «ولست بمقلى الخـلال ولا قـالى»

فـــأدرك آمـــــالى ومـــــا كل آمل «بمقدرك أطراف الخطوب ولا آلى»

***

قلت: هكذا وجدت بخط بعض أعلام مراكش نسبة هذه القصيدة لأبى الحسن حازم المذكور، واعتمـدت على هذه النسبة، ثم بان لى خطؤها، وإنّما هذه القصـيدة من نظم العلامة أبى بكر بن جـزى الكلبى الغرناطى، حسـبما نص على ذلك غير واحد(١).

ولنورد كلام بعض الأئمة فى حقه، لأن فيه المطلوب وزيادة، ونصه:

محمّد بن أحمد عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزى الكلبى، يكنى أبا القاسم(٢)، من أهل غرناطة، وذوى الأصالة والنباهة فيها، وأصل سلفه من وَلْبَه، من حصن البراجلة، نزل بها أولهم عند الفتح، صحبة قريبـهم أبى الخطار حسـام بن ضرار الكلبى، وعند خلع دعـوة المرابطين كان لجدهم يحيى بجيان، رياسة وانفراد بالتدبير.

وكان رحمه الله على طريقة مثلى، من العكوف على العلم، والاقتيات من حر النشب، والاشتـغال بالنظر والتقييـد والتدوين، فقيها حـافظا، قائما على التـدريس، مشـاركًا فى فنون من العـربية والفـقه والأصـول والقراءات

(١) منهم المقـرى فى نفح الطيب ج٥ ص ٥١٧، ثم أورد له هذه القـصـيدة التى نسـبت هنا لحازم.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥١٤، والكتيبة الكامنة ٤٦.

والحديث والأدب، حافظا للتفسير، مستوعبًا للأقوال، جماعة للكتب، ملوكى الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن؛ تقدم خطيبًا بالمسجد الأعظم من بلده، على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته.

ومن شيوخه الأستاذ أبو جعفر بن الزبير[1]، وابن الكماد، وابن رشيد، والحضرمى، وابن أبى الأحوص، وابن برطال، وأبو عامر بن ربيع الأشعرى والولى أبو عبد الله الطنجالى، وابن الشاط.

تواليفه[2]: كتاب «وسيلة المسلم فى تهذيب صحيح مسلم»؛ و«الأنوار السنية فى الكلمات السنية»؛ وكتاب «الدعوات والأذكار»؛ وكتاب «القوانين الفقهية»؛ وكتاب «تقريب الوصول إلى علم الأصول»؛ وكتاب «النور المبين فى قواعد عقائد الدين»؛ إلى غير ذلك مما قيده فى التفسير والقراءات.

شعره: قال فى الأبيات الغينيَّة، ذاهبا مذهب الجماعة، كأبى العلاء المعرى، والرئيس ابن المظفر، وأبى الطاهر السلفى، وأبى الحجاج بن الشيخ، وأبى الربيع بن سالم، وأبى علىّ بن أبى الأحوص، وغيرهم:

لكل بنى الدنيا مراد ومقصد ... وإنَّ مرادى صحة وفراغ[3]

لأبلغ فى علم الشريعة مبلغا ... يكون به لى للجنان بلاغ

ففى مثل هذا فلينافس ذوو النهى ... وحسبى من دار الغرور بلاغ

فما الفوز إلاّ فى النعيم مؤبد ... به العيش رغد والشراب يساغ

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥١٤.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٥١٥.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٥١٥.

وقال فى مذهب الفخر:

وكم من صفحة كالشمس تبدو فيسلى حسنها قلب الحزين[1]

غضضت الطرف عن نظرى إليها محافظة على عرضى ودينى

انتهى.

***

ومن مشهور نظمه رحمه الله:

أروم امتداح المصطفى فيردنى قصورى عن إدراك تلك المناقب[2]

ومن لى بحصر البحر والبحر زاخر ومن لى بإحصاء الحصى والكواكب

ولو أنَّ أعضائى غدت وهى ألسن لما بلغت فى القول بعض مآربى

ولو أنَّ كل العالمين تألفوا على مدحه لم يبلغوا بعض واجب

فأقصرت عنه هيبة وتأدبا وعجزًا وإعظامًا لأعظم جانب

ورب سكوت كان فيه بلاغة ورب كلام فيه عيب لعائب

***

ورأيت بخط الإمام ابن داود أنَّ قوله وكم من صفحة البيتين، ليس من كلامه، بل من كلام ابنه أبى بكر وهو خطأ لابن ابن الخطيب ذكر فى الكتيبة أنَّ البيتين للشيخ أبى القاسم لا لابنه أبى بكر[3]، والله الموفق.

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥١٦، والكتيبة الكامنة ٤٧.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٥١٥.

(٣) الكتيبة الكامنة ٤٧.

ثم قال هذا المعرف بابن جزى:

مولده: يوم الخميس التاسع لربيع الثانى من عام ثلاثة وتسعين وست مئة.

وفاته: فقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم يوم الكائنة بطريف، ضحوة يوم الاثنين السابع لجمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبع مئة. تقبل الله شهادته. انتهى.

ولنختم ترجمته بقوله رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه بمنه:

يا رب إنَّ ذنوبى اليوم قد عظمت فما أطيق لها حصرا ولا عددا[1]

وليس لى بعذاب النار من قِبَلٍ ولا أطيق لها صبرا ولا جلدا

فانظر إلهى إلى ضعفى ومسكنتى ولا تذيقننى حر الجحيم غدا

***

ثم قال فى التعريف بولده أبى بكر المقصود ذكره هنا وهو الذى ألف أو أبوه الأنوار السنية ما نصه:

هو أحمد بن محمّد بن أحمد بن جزى الكلبى، يكنى أبا بكر[2]، من أهل الفضل والنزاهة والهمة، وحسن السمت، واستقامة الطريق، غرب فى الوقار، ومال إلى الانقباض وله مشاركة حسنة فى فنون من فقه وعربية وخط ورواية وأدب، وشعر وتسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة، وقرأ على والده ولازمه، واستظهر ببعض تآليفه، وتفقه وتأدب به، وقرأ على بعض معاصرى أبيه، ثم ارتسم فى الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبى الحجاج بن

(١) نفح الطيب ٥/ ٥١٦، والكتيبة الكامنة ٤٧.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥١٧.

نصر، وولى القضاء ببَرْجة وبانَدَرش، ثم بوادى آش، مشكور السيرة معروف النزاهة.

ومن شعره[1]:

أرى الناس يولـون الغنى كـــرامـة وإنْ لم يكن أهلا لرفـعـة مـقـدار
ويلوون عن وجه الفقـير وجوههم وإنْ كـان أهلا أنْ يلاقـى بإكـبـار
بنو الدهر جـاءتهم أحاديث جـمة فما صحـحوا إلاّ حديث ابن دينار

* * *

ومن بديع ما صدر عنه تصدير أعجاز قصيدة امرئ القيس بقوله:

أقـول لعزمى أو لصـالح أعمـالى «ألا عم صباحا أيّها الطلل البالى»[2]

ثم سرد منها أحد عشر بيتا إلى قوله:

فـأين الذين اسـتـأثروا قـبلنا بهـا «لناموا فما إنْ من حديث ولا صال»

ثم قال ما نصه: وهى ثمانية وأربعون بـيتا، ولا خفاء ببراعة هذا النظم وإحكام هذا النسيج، وشدة هذه العارضة.

* * *

وله تقييد[3] فى الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية، ورجز فى الفرائض، وإحسان كثير.

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥١٧.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٥١٨.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٥٢٥.

وتقدم قاضيا للجماعة بحضـرة غرناطة ثامن شوال عام ستين وسبع مئة ثم صرف عنها. ثم لما توفى الأسـتاذ الخطيب العالم الشهير، أبو سـعيد فرج ابن لب رحمه الله تعالى، وكان خطيب الجـامع الأعظم بغرناطة، ولى عوضا منه أستـاذا وخطيبا، عـام اثنين وثمانين وسبـع مئة، فبـقى فى الخطابة ثلاثة أعوام، ثم توفى. وأظن أنَّ وفـاته إنما كانت فى أواخر عـام خمسـة وثمانين وسبع مئة رحمه الله تعالى. انتهى.

ولا شك أنَّ مـا ذكـره هذا الإمـام فى حق والده إنما هو من كـلام ابن الخطيب فى الإحاطة والله أعلم.

***

ولأبى بكر بن جـزى هذا أخ كاتب مـجيـد من عجـائب الزمن، وهو الفقيه الكاتب محـمّد بن محمّد بن[1] أحمد بن عبد الله بن يحيى بن الأمير أبى بكر عبد الرحـمن الثائر بجيان، ابن يوسف بن سعيـد الغرناطى، المتوفى بفاس فى عام ثمـانية وخمسين وسـبع مئة رحمـه الله، وقيل: بل توفى آخر شوال من السنة قبلها مبطونا رحمه الله.

قلت: وهذا هو الصـواب فى وفاته، فـإنى رأيت بخط من يوثق به من الأعلام الذين عرفـوا حاله، أنه توفى بداره من البيضـاء قرب المغرب من يوم الثلاثاء التاسع والعشـرين لشوال، من عام سبعة وخمسـين وسبع مئة، وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصـر وراء الحائط الشرقى الذى بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء، وكان مولده فى شوال من عام واحد وعشرين وسبع مئة. انتهى.

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٢٦.

يكنى أبا عبد الله. قال ابن الأحمر فى نثير الجمان: أدركته ورأيته وهو من أهل بلدنا غرناطة، وكان أبوه أبو القاسم محمّد أحد المفتين بها، عالم الأندلس، الصائرة[1] فتياه منها إلى طرابلس، وقتل شهيدا فى المعترك فى الوقيعة التى كانت للنصارى دمرهم الله بطريف على المسلمين، فى سنة إحدى وأربعين وسبع مئة بعد أنْ أبى بلاء حسنا.

وأبو عبد الله محمّد هذا كتب بالأندلس فى حضرة ابن عم أبينا أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف، وله فيه أمداح عجيبة، ولم يزل كاتبا فى الحضرة الأحمرية النصرية إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج ابن عم أبينا.

قلت: كان هذا الامتحان الذى ذكره ابن الأحمر هو أنَّه ضربه بالسياط من غير ذنب اقترفه بل ظلمه ظلما بينا. هكذا ألفيته فى بعض المقيدات[2] والله أعلم.

ثم قال ابن الأحمر: فقوض الرحال عن الأندلس، واستقر بالعدوة، فكتب بالحضرة المرينية، لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبى عنان، إلى أنْ توفى بها رحمه الله.

حاله رحمه الله:

طلع فى السماء العلوم بدرًا مشرقًا، وسارت براعته غربًا ومشرقًا، وسما بشعره فوق الفرقدين، كما أربى بنثره على الشعرى والبطين، له باع مديد فى التاريخ، واللغة، والحساب، والفقه والنحو والبيان والآداب، بصيرًا بالأصول والفروع والحديث، عارفًا بالماضى من الشعر والحديث؛ إنْ نظم أنساك أبا ذؤيب برقته، ونصيبًا بمنصبه ونخوته؛ وإنْ كتب أربى على ابن مقلة

(١) فى المطبوع: «الطائرة» والمثبت أولى.

(٢) هذا هو لفظ ابن الأحمر فى نثير فرائد الجمان.

بخطه، وإنْ أنشأ رسالة أنساك العماد بحسن مساقها وضبطه؛ وهو رب هذا الشان، وفارس هذا الميدان؛ ومع تفننه فى العلوم فهو فى الشعر قد نبغ، وما بلغ أحد من شعراء عصره منه ما بلغ؛ بل سلموا التقدم فيه إليه، وألقوا زمام الاعتراف بذلك فى يديه؛ ودخلوا تحت راية الأدب التى حمل، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس بالحمل.

أنشدنى لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل، عم أبينا، ابن جدنا الرئيس الأمير سعيد فرج، ابن جدنا الأمير أبى الوليد إسماعيل، ابن جدنا الأمير أبى الحجاج يوسف الشهير بالأحمر، ابن جدنا أمير المؤمنين المنصور بالله أبى بكر، محمّد بن أحمد بن محمّد بن خميس بن نصر الخزرجى، هذه القصيدة البارعة، وحذف منها الراء المهملة:

قسمًا بوضاح السنى وهاج ... من تحت مسبول الذوائب داجِ[1]

وبأبلج بالمسلك خطت نونه ... من فوق وسنان اللواحظ ساجِ

وبحسن خد دبجت صفحاته ... فغدت تحاكى مذهب الديباجِ

وبمبسم كالعقد نظم سلكه ... ولمى حكى الصهباء دون مزاجِ

وبمنطق تصبو القلوب لحسنه ... أنسى المسامع نغمة الأهزاجِ

وبمائس الأعطاف تثنيه الصبا ... فيميس كالْخَطِىِّ يوم هياجِ

ومنعم مثل الكثيب يقله ... متضعف يشكو من الإدماجِ

وبموعد للوصول أنجز فجأة ... من بعد طول تمنع ولجاجِ

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٢٧.

وبأكـؤس أطلعن فـى جنح الدجى شمـس السلافـة فى سمـاء زجاجِ
وحـدائق سحب الـسحـاب ذيوله فـيـهـا وبات لهـا النسـيم يناجى
وجـداول سلت سـيـوفًـا عند مـا فـجـئت بجـيش للصـبا عـجـاجِ
وبأقـحوان قـد تضـاحك إذ بكت عـين الغـمـام بمدمع ثجـاحِ
وقـدود أغـصـان يملن كـأنهـا تخـفى حـديثـهـا بيـنهـا وتناجى
وحمـائم يهتـفن شجواً بـالضحى فـهـديلهن لذى الصـبـابة شـاجى
إنَّ المعـالى والعـوالـى والندى والبـأس طوع يـدى أبى الحـجـاجِ
ملك تـتـوج بالمهـابة عـندمـا لم يستجـر فى الدين لبس التـاجِ
وأفـاض حكم العـدل فى أيامـه فـالحق أبلج واضـح المنهـاجِ
هو منقـذ العـانى ومغنـى المعتـفى ومـذلل العـاتى وغـوث اللاجى
مـاضى العـزيمة والسيـوف كليلة طلق المحـيـا والخـطوب دواجى
علم الهدى والنـاس فى عميـاء قد ضلوا لـوقع الحـادث المهـتـاجِ
غيث الندى والسحب تبـخل بالحيا والمحل يبـدى فـاقـة المحـتـاجِ
ليث الوغـى والخـيل تزجى بـالقنا والبـيـض تنهـل فى دم الأوداجِ
يتـقـشع الإظـلام إذ يبـدو له وجـه كـمـثل الكـوكب الوهاجِ
من آل قـيلة من ذؤابة سـعـدها أعلى بنـى قـحطان دون خـلاجِ
حـيث العلا ممدوحـة الأطناب لم تخلـق مـعـالمهـا يد الإنهـاجِ
والأعـوجـيـات السـوابـق تمتطى فـتظلل الآفـاق سـحب عـجـاجِ

والبيـض والأسل العوامل تقـتضى مـــهج الكـمـاة بـأبلغ الإزعـــاجِ
مـجد ليـوسف جـمـعت أشتـاته أعـيـــا سـواه بعـــد طول عـلاجِ
مـولاى هاك عـــقـيلة تـزهو على أخـــواتهـــا كـــالغـــادة المـغناجِ
إنشـاء عـبـد خـالص لك حـبـه ومن العـبـيـــد مـداهن ومـداجى
أوى إلى أكنـاف نعـــمـــــاك التى ليـسـت إليـه صـلاتهـــا بخـداجِ
سـبـاق ميـدان البـلاغـة والوغى لشـــعـــــاب كل مـنهـــا ولاجِ
جـانبت أخت الزاى فيـهـا عامـدًا فـأتت من الإحـــسـان فى أفـواجِ
فـافتح لهـا باب القبـول وأوْل من أهداكـهـــا مـا ينبـغـى من حـاجِ

* * *

قال ابن الأحـمر: وأنشدنى أيضًا لنفـسه، يمدح أميـر المؤمنين المتوكل على الله أبا عنان فارسًا ملك المغرب[1]، رحمه الله:

إنَّ قلبى لـعـهـدة الصـبـــر ناكث عن غزال فى عـقدة السـحر نافث
أضـــرم الـنار فى فـــؤادى وولى قـــائلا لا تخـف فـــإنى عـــابث
ورمـانـى من مـقلتـــيـه بسـهمٍ ثم قـــال اصطـبـر لـثـــان وثالث
كم عـــذول أتى يـنـاظر فـيـــه كـــان تعـــذاله على الحـب باعث
ويمـــين آلـيـتـــهـــا بالـتـــسلى فـــقـضـى حـسـنه بأنى حـــانث
جـبـر الله صـدع قلـب عـمـيـد صدعـت شمله صـروف الحوادث

(١) نفح الطيب ٥/٥٢٨.

obeikandi.com

فهو يهفو إلى البروق ويروى عن نسيم الصبا ضعاف الأحادث
سلبته الأشجان إلاّ بقايا من أمان حبالهن رثائث
وبكاء على عهود مواض ملأت صدره هموما حدائث
لست وحدى أشكو بلية وجدى إنَّ داء الغرام ليس بحادث
يا مضيع العهود والله يعفو عنك إنى ارتضيت خطة ناكث
غرنى منك والجمال غرور وظبا اللحظ فى القلوب عوابث
مقل يقتسمن أعشار قلبى بالرضا منى اقتسام الموارث
كيف غيرت بانتزاحك حالى وتغيرت لى وليس بحارث
فرط حبى وفرط حبك إلاّ أنَّ عينيك بالفتور نوافث
وندى فاس وحسنك ردا قول من قال سد باب البواعث
ملك البأس والندى فهو بالسيـ ـفِ وبالسيب عابث أو غائث
محرز المجد والثناء فهذا سائر فى الورى وذلك لابث
أوطأ الشهب رجله وترقى صاعدا فى سموه غير ماكث
فدرار تسرى وما لحقته ونجوم خلف القصور لوابث
وله المقربات لا بل هى العقـ ـبان من فوقها الليوث الدلاهث
مطلعات من كل نعل هلالا فلهذا تجلو دجى كل حادث
إنْ توافقن فالجبال الرواسى أو تسابقن فالغيوث الحثائث
والمواضى كأنها قد أعيرت حدة الذهن منه عند المباحث

هى نار مـــحـــرقـات الأعـــادى وهى مـاء مـطهـرات الخـبـــائث
فـيـــردن بالوغى ذكـورا عـطاشـا ثم يـصـــــدرن نـاهلات طـوامث
من مـــعـاليـه قـــد رأينا عـيـــانا كل فـــضل ينصـــه من يحـــادث
خلق كـالـنسـيم مـر ســـحـيـرا بالأزاهيـــر فى البـطاح الدمـــائث
فى سـبـــيل الإله يقـــضى ويدنى ويـوالـــى فـى ذاتـه ويـنـــاكـث
شـــرف الملك منه ســـام وحـــام فـــقـــدته ســـام وحـــام ويافث
حـاكـهـا من بنات كـسـرى بكرا ليس يسـمو لهـا من الناس طامث
ذات لفظ لا يعـــتـريه اخـــتـلال ومـعـان لا تنتـحـيـهـا المبـاحث
زعـمـــاء القـريض أبقـوا بـقـايا كـنت دون الـورى لـهن الـوارث
من تـقـــتـــادهـا فـــهـى هذى عرضـة البحث فليكن جـد باحث

***

قلت: رأيت[1] بخط ابن الصباغ العقيلى على حاشية قوله:

«وندى فارس وحـسنك ردًا. . . .» البيت، مـا نصه: ما أبـدع تخلصه للمدح وأطبعه، فإنه أشار إلى قول الشاعر رادًّا عليه بالتبكيت، ومعقبا[2] له بالتعنيت:

قالوا تـركت الشعر قـلت ضرورة باب السـمـاحـة والملاحـة مـغلق
مـات الـكرام فـلا كـــريم يُرتجى منـه النوال ولا مـليـح يُعـــــشق

انتهى.

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٠.

(٢) فى المطبوع: «ومعنفا» والمثبت من النفح وهو أولى.

وعلق بحفظى[1] أنْ السلطان أبا عنان أطل من برج، يشاهد الحرب بين الثور والأسد، على ما جرت به عادة الملوك، فقال ابن جزى هذا فى وصف الحال، ما يكاد تعد معارضته من قبيل المحال، وهو:

لله يوم بدار الملك مر به ... من العجائب ما لم يجر فى خلد[2]

لاح الخليفة فى برج العلا قمرا ... يشاهد الحرب بين الثور والأسد

***

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى:

أبا حسن إنْ شتت الدهر شملنا ... فليس لود بالفؤاد شتات[3]

وإنْ حلت عن عهد الإخاء فلم يَزَلْ[4] ... لقلبى على حفظ العهود ثبات

وهبنى سرت منى إليك إساءة ... ألم تتقدم قبلها حسنات

***

وهو الذى ألف رحلة ابن بطوطة حسبما هو معلوم.

***

قال ابن الأحمر: ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله وهو بحال مرض[5]:

إنْ يأخذ السقم من جسمى مآخذه ... وأصبح القوم من أمرى على خطر

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٠.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣١.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٥٣١.

(٤) فى المطبوع: «فلم أزل» والمثبت رواية النفح وهى أولى.

(٥) نفح الطيب ٥/ ٥٣١.

فـــإنَّ قلبى بحـــمـد الله مـــرتبط بالصـبر والشكر والـتسليم للقـدر
فالمـرء فى قبـضة الأقـدار مصـرفه للبـرء والسـقم أو لـلنفع والضـرر

❊ ❊ ❊

وحكى لى غيـر واحد[1]، أنَّ الفقـيه الكاتـب القاضى الحـاج الرحال إسحاق ابن الحاج النميرى، بقى فى خلوته جميع شهر رمضان المعظم من عام سبعة وخمـسين وسبع مئة، فلما خرج يوم عيد الفطر أنشـده سيدى أبو عبد الله ابن جزى المذكور لنفسه يخاطبه:

مـــا ســـــرار البـــــدور إلاّ ثلاث فلمـــاذا أرى ســـرارك شـــهـــرا
أتعـــــجلـتـــه ســـــرورا لعـــــام ثم تبـــقى فى ســـائر العـــام بدرا

وحكى[2] أنَّه كـتـب رحـمـه الله للرئـيس الكاتب، أبى القـــاسم بن رضوان، يطلب منه شراب سكَنْجِبين، وقصد التصحيف بقوله:

أحسن زان بيتك نجيب تسر به برء مرضى.

تصحيفه:

أحب شراب سكنجبين شربه برء مرضى.

قال فجاوبه ابن رضوان بقوله:

«إنَّ برك نفيس». تصحيفه مقلوبا: «يشفيك ربنا».

❊ ❊ ❊

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣١.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣١.

obeikandl.com

وتذكرت بهذا ما وقع للرئيس ابن الجياب، فإنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رمانا، ثم دخل عليه عائدا، فلما رآه قال له: يا فقيه، نَعِمَ بالهُدْنة زمانك، أراد: نعمت الهدية رُمَّانك. وكان هذا قبل موته من مرضه بيسير، وهو مما يدل على ثقوب ذهنه حتى قرب الموت، سامحه الله وغفر له.

* * *

ومن نظم أبى عبد الله بن جزى المذكور قوله:

رعى الله عهدا بـأَلْمَرِيَّةَ لا أرى له أبدا ما عشت فى الناس بالناسى[1]

وكيف ترى بالله صحبة معشر مجاهد بعض منهم وابن عباس

* * *

ومن ذلك قوله رحمه الله فى الزاوية التى أنشأها أبو عنان، وهو مكتوب عليها إلى قرب هذا التاريخ:

هذا محل الفضل والإيثار والرفق بالسكان والزوار[2]

دار على الإحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار

هى ملجأ للواردين ومورد لابن السبيل وكل ركب سارى

آثار مولانا الخليفة فارس أكرم بها فى المجد من آثار

لا زال منصورا اللواء مظفرا ماضى العزائم سامى المقدار

بنيت على يد عبدهم وخديم با بهم العلى محمّد بن جدار

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٢.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣٢.

فى عام أربعة وخمسين انقضت من بعد سبع مئين فى الأعصار

❊ ❊ ❊

ومن بديع نظمه رحمه الله قوله:

وما أنسى الأحبة حين بانوا تخوض مطيهم بحر الدموع[1]

وقالوا اليوم منزلنا الحنايا فقلت نعم ولكن من ضلوعى

❊ ❊ ❊

وقوله رحمه الله:

ورب يهودى أتى متطببا ليأخذ ثارات اليهود من الناس[2]

إذا جس نبض المرء أودى بنفسه سريعا ألم تسمع بفتكة جساس

❊ ❊ ❊

وقوله رحمه الله:

من أى أشجانى التى جنت الهوى أشكو العذاب وهن فى تنويع؟[3]

من وصلى الموقوف أو من هجرى الـ ـموصول أو من نومى المقطوع؟

❊ ❊ ❊

وقوله رحمه الله:

فخدى وجسمى والفؤاد وأدمعى شهود بهم دعوى الغرام تصحح[4]

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٢.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣٢.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٥٣٢.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٥٣٣.

obeikandl.com

ومن عـجب أنْ رَجَّحَ الناس نقلهم وكلهم ذو جـرحـة فـيـه تقـدح
جـسمى ضـعـيف والفؤاد مـخلط ودمـعى مطروح وخـدى مـجـرح

❊ ❊ ❊

وقوله رحمه الله:

يا مـحـيـا كـتب الحـسن به أحـرفـا أبدع فـيـهـا وبرع[1]
مـيم ثغـر ثم نون حـاجب ثم عـين هـى تتـمـيم البـدع
أنـا لا أطـمـع فى وصـلـك لـى وعلى وجـهك مكتـوب منع

❊ ❊ ❊

قال ابن الأحمر:

ومن إنشاء البارع موريا بالكتب[2]، ورفعها لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبى عنان فارس، رحـمه الله، يهنئه بإبلال ولده وولى عهـده، الأمير أبى زيان محمّد مِنْ مرض[3]:

ماذا عسى أدب الكتاب يوضح من خصال مـجدك وهو الزاهر الزاهى
ومـا الفـصيـح بكليـات موعـبـا كـاف فـيـأتى بإنبـاء وإنبـاه

أبقى الله مولانا الخـليفة ولسـعادته القـدح المعلى، ولزاهر كمـاله التاج

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٣.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣٣ وبهـامش المطبوع: «يلاحظ أن هذه الرسـالة مشـتملة على الـتورية بأسماء كثيرة من الكتب المشهورة. وقد اكتفينا بهذه الإشارة عن التنبيه على كل منها.

(٣) بهامش نفح الطيب: «ليـس من السهل التعريف بكل هـذه الكتب التى ورى بها فى هذه الرسالة، لأن ذلك يتطلب تطويلاً لا تتحمله هذه الحواشى.

obeikandl.com

المحلى، تجلى من حلاه نزهة الناظر، ويسير بعلاه المثل السائر، ويتسق من ثناه العقد المنظم، ويتضح بهداه القصد الأمم، ولا زالت مقدمات النصر له مبسوطة، ومعونة السعد بإرشاته منوطة، وهدايته متكفلة بإحياء علوم الدين، وإيضاح منهاج العابدين، وإرشاده يتولى تنبيه الغافلين، ويأتى من شفاء الصدور بالنور المبين، وميقات الخدمة ببابه مطمح الأنفس، وملخص الجود من كفة بغية المتلمس، قد حكم أدب الدين والدنيا، بأنك سراج الملوك، لما أتته عوارفك بالمشرع السلسل ومعارفك بنظم السلوك، ووضحت معالم مجدك وضوح أنوار الفجر، وزهت بعدلك المسالك والممالك زهو خريدة القصر، فلك فى جمهرة الشرف النسب الوسيط، ومن جمل المآثر الخلاصة والبسيط، وسبل الخيرات لها برعايتك تيسير، ومحاسن الشريعة لها بتحصيلك تحبير، وأنت حجة العلماء، الذى تقصر عن قصى مآثره فطن الأذكياء، إن أنبههم التفسير ففى يديك ملاك التأويل، أو اعتاص تفريع الفقه فعندك فضل البيان له والتحصيل، وإنْ تشعب التاريخ فلديك استيعابه، أو تطاول الأدب ففى إيجاز بيانك اقتضابه، وإنْ ذكر الكلام ففى انتقائك من برهانه المحصول، أو المنطق ففى موجز أماليك لبابه المنخول، وليس أساس البلاغة إلاّ ما تأتى به من فصل المقال، ولا جامع الخير إلاّ ما حزته فى تهذيب الكمال، ولذلك صارت خدمتك غاية المطلوب، وحبك قوت القلوب، ولا غَرْوَ أنْ كنت من العلياء درتها المكنونة، فأسلافك الكرام هم جواهرها الثمينة، بحماستهم أصيب مقاتل الفرسان، وبجود جودهم تسنى رى الظمآن، وبتسهيل عدلهم وضحت شعب الإيمان، وأنت المنتقى من سمط جمانهم، والواسطة فى قلائد عقيانهم، عنك تؤثر سيرة الاكتفاء، وعن فروعك السعداء، تروى أخبار نجباء الأبناء، فهم لمملكتك العلية بهجة مَجالسها، وأنس مُجالسها وقطب سرورها، ومطالع نورها، وولى عهدك

درتهم الخطيرة، وذخيرتهم الأثيرة، لا زال كمال سعادته بطول مقامك محكما، وحرز أمانيه بالجمع بين الصحيحين: حبك ورضاك معلما، وقد وجبت التهنئة بما كان فى حيلة برئه من التيسير، وما تهيأ فى استقامة قانون صحته من نجح التدبير، ولم يكن إلاّ أنْ بعدت به عنك المسالك، وأعوز نور طرفه تقريب المدارك، وتذكر ما عهده من الإيناس الموطأ جناية عند فضل مالك، فورى من شوقه سقط الزند، والتهب فى جوانح قبس الوجد، فأمددته من دعائك الصالح بحلية الأولياء، فظفر لما شارف مشارق الأنوار من حضرتك بالشفاء، وقد حاز إكمال الأجر بذلك العارض الوجيز، وكان كتشبيب الإبريز، وهاهو قادم بالطالع السعيد، آئب بالمقصد الأسنى من الفتح والتمهيد، يطلع بين يديك طلوع الشهاب، ويبسم عن مفصل الثناء فى الهناء بذلك زهر الآداب، فأعد له تحفة القادم من إحسانك الكامل، واخصصه بالتكملة من إيناسك الشامل، فهو الكواكب الدرى المستمد من أنوارك السنية، وفى تهذيب شمائله أيضاح للخلق الكريمة الفارسية، لا زالت تزدان بصحاح مآثرك عيون الأخبار، وتتعطر بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار، وتتلى من محامدك الآيات البينات، وتتولى عليك الألطاف الإلهيات بمن الله وفضله.

والسلام الكريم يعتمد المقام العلى ورحمة الله وبركاته. انتهى.

***

وقد قال أبو عبد الله بن جزى المذكور رحمه الله عدة قطع يورى فيها بأسماء الكتب منها قوله[1]:

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٦.

ظبـى هو الكـامل فـى حـــسـنه وثغـــره أبـهى من الـعـــقـــد
جـــمـــالـه المشـــرق لكنهـــا أخـــلاقـــه تحكى صـبـــا نجـد

وقوله رحمه الله[1]:

لك الله من خل حـبـانى برقـعـة حـــبـــتنـى من آياتهـــا بـالنوادر
رسـالة رمـز فى الجـــمـال نهـاية ذخـيـــرة نظم أتحـفت بـالجـواهر

وقوله رحمه الله[2]:

قـصـتى فى الهـوى المـدونة الكبـ ـرى وأخـبـار عشـقى المبـسـوطهْ
حـجـتى فى الغـرام واضـحـة إذ لم تزل مـهـجـتـى بوجـد منوطهْ

أقول: مـا أبدع هذا الفصل الـذى حبـره هذا الحبـر فى فن التـورية، وشاهده على استحقاق مبرز عدل لا يحتاج إلى تزكية.

***

وتذكرت بهـذه التورية بأسمـاء الكتب قول بعض الأكـابر وأظنه الشيخ الكاتب أبا محمّـد عبد المهيمن الحضرمى، لأن الكاتـب أبا إسحاق بن الحاج النميرى رحمه الله قال حسبما وجدت بخطه ما نصه:

أنشدنى شيخنا الإمام أبو محمّد لنفسه[3]:

من اغـــتـــدى مـــوطـأ أكنافـــه صح له التـمـــهـيـد فى أحـواله
وقـــابل اسـتـــذكـــاره بالمنتـــقى من رأيه المخـــتـــار مـن أعـمـــاله

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٦.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣٦.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٥٣٧.

وأضحت المسالك الحسنى له تدنى تقصيا قصى آماله

وسار من مشارق الأنوار فى أدنى المدارك إلى إكماله

❊ ❊ ❊

ثم قال أبو إسحاق بن الحاج المذكور: ولما وقف على ذلك صاحبنا الفاضل العالم أبو علىّ حُسَين بن صالح بن أبى دلامة أنشدنى له هذه الأبيات وزاد ذكر القبس والمعلم[1]:

قل للموطأ للورى أكنافه بشرى بالتمهيد فى الأحوال

وإذا اكتفى بالمنتقى استذكاره وفى له المختار فى الأعمال

ومسالك الحسنى تؤديه إلى أقصى التقصى من قصى الآمال

ويلوح من قبس الهداية رشده من معلم التفصيل والإجمال

انتهى كلام ابن الحاج.

❊ ❊ ❊

ومن هذا المعنى قول الوزير أبى عبد الله بن الخطيب[2]:

وظبى لأوضاع الجمال مدرس عليم بأسرار المحاسن ماهر

أرى جيده نص المحلى وقررت ثناياه ما ضمت صحاح الجواهر

❊ ❊ ❊

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٧.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣٧.

obeikandl.com

وقول ابن خاتمة[1]:

ومعطر الأنفاس يبسم دائما عن در ثغر زانه ترتيب
من لم يشاهد منه عقد جواهر لم يدر ما التنقيح والتهذيب

ومن قول ابن خاتمة أيضًا[2]:

سفهنى عاذلى عليه وقال لى وده عليل
فقلت معتل أو صحيح يودعه عينه الخليل

***

وقوله أيضًا[3]:

حاز الجمال بصورة قمرية تجلو عليك مشارق الأنوار
وحوى الكمال بسيرة عمرية تتلو عليك مناقب الأبرار

***

ولنرجع إلى نظم ابن جزى فنقول:

وأنشد فى الإحاطة لأبى عبد الله بن جزى المذكور[4]:

تلك الذؤابة ذبت من شوقى لها واللحظ يحميها بأى سلاح
يا قلب فانج وما إخالك ناجيا من فتنة الجعدى والسفاح

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٧.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣٧.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٥٣٧.
(٤) نفح الطيب ٥/ ٥٣٨ والإحاطة ٢/ ٢٦٥.

obeikandl.com

وقوله رحمه الله تعالى[1]:

وعاشق صلى ومحرابه ... وجه غزال ظل يهواه

قالوا تعبدت فقلت نعم ... تعبدا يفهم معناه

وقوله رحمه الله[2]:

نصب الحبائل للورى بالحسن إذ ... رفع اللثام وذيله مجرور

وأماله عنى العواذل ضلة ... فهو الممال وقلبى المكسور

وقوله رحمه الله[3]:

لا تعد صنفك إنْ ذهبت لصاحب ... تعتده لكن تخير وانتق

أوما ترى الأشجار مهما ركبت ... إنْ خولفت أصنافها لم تعلق

انتهى.

ولنختم ما أوردنا من نظمه بقوله[4]:

أيتها النفس قفى عندما ... ألزمت فعلا كان أو قولا

فمن يكن يرضى بما ساءه ... أو سره فهو له الأولى

لا يترك العبد وما شاءه ... إلاّ إذا أهمله المولى

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٩.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٣٨. وقد تحرف «الممال» فى المطبوع إلى: «المحال» وصوابه مما ذكر.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٥٣٩، والإحاطة ٢/ ٢٦٣.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٥٣٩.

obeikandl.com

وقوله رحمه الله[1]:

لولا ثلاث قد شغفت بحبها ما عفت فى حوض المنية موردى

وهى الرواية للحديث وكتبه والفقه فيه وذاك حسب المهتدى

***

ولنعد إلى ذكر حازم فنقول:

كان أبو الحسن حازم والكاتب الفقيه المحدث أبو عبد الله بن الأبار فرسا رهان فى ميدان الآداب، وقد جمعها الزمان وتعلقهما من الدولة الحفصية بأهداب.

***

وإذ قدمنا نبذة من أخبار أبى الحسن حازم فلا بأس أنْ نتبعها بمثلها من أخبار الإمام ابن الأبار.

وهو الفقيه الأجل الكاتب الحافل، الراوية المحدث، الفاضل الناقد البارع، الحافظ الكامل، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله القضاعى البلنسى المعروف بابن الآبار.

(*)قال فى المغرب فى حقه ما ملخصه: حامل راية الإحسان، المشار إليه فى هذا الأوان؛ ومن شعره قوله - يصف الياسمين:

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٣٩.

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلى ساقط من المطبوع واستدرك من مخطوطة الرباط رقم ٧٨٤، وهو موجود بنصه لدى المصنف فى نفح الطيب ٢/ ٥٩١ - ٥٩٣ وانظر المغرب ج٢ ص ٣١٠.

obeikandi.com

حـــديقـــة الـيـــاســـمين لا تهـــيم بغـــيـــرها الحـــدقُ

إذا جـــفـــن الغـــمـــــام بكى تبـــــسم ثغـــــرها اليـــــقق

فـــــأطـراف الأهلـة ســـــا ل فى أثـنائهـــا الشـــفق

وقوله - وكتب بها إلى الوزير الأصـيل أبى عبد الله بن أبى الحسين بن سعيد وزير صاحب إفريقية يستدعى منه منثورًا:

لك الخـيـــر أتحـفنى بخـيـــرى روضـة

لأنفـــاســـه عند الهـــجـــوم هبـــوب

أليـس أديب الـروض يجـــــعـل ليـله

نهـــارا فـــيـــذكـــو تحت ويطـيب

ويطوى مع الإصـــبـاح منشـــور نشـره

كـــمـــا بان عن ربع المحب حـــبـــيب

أهيـم به عـن نســـــبـــــة أدبيـــــة

ولا غـــــرو أن يهـــوى الأديـب أديب

وقوله فى الخسوف:

نظرت إلـى البـــدر عنـد الخـــســوف

وقـــــــــــد شـين مـنـظـره الأَزْيَـنُ

كـمـــا سـفـرت صـفـــحـة للحـــبـيـ

ـب يـحـــجـــبـــهـــا برقـع أدكن

obeikandi.com

وقوله فى المعنى:

ألم تر للخسوف وكيف أبدى

ببدر التم لماع الضياء

كمرآة جلاها القين حتى

أنارت ثم ردت فى غشاء

وقوله:

والثريا بجانب البدر تحكى

راحة أومأت لتلطم خدا

وقوله:

من عاذرى من بابلى طرفه

ولعمره ما حل يوما بابلا

أَعْتَدُّه خوطا لعيشى ناعما

فيعود خطيا لقتلى ذابلا

وهو حافظ متقن، له فى الحديث والأدب تصانيف، وله كتاب فى متخير الأشعار سماه: «قطع الرياض»، وله كتاب فى شعراء الأندلس، وله تكملة الصلة لابن بشكوال، وله «هداية المعترف، فى المؤتلف والمختلف»، وكتاب التاريخ، وبسببه قتله صاحب إفريقية وأحرق كتبه - على ما بلغنا - رحمه الله، وله «تحفة القادم فى شعراء الأندلس»، و«الحلة السيراء فى أشعار الأمراء».

ومن شعره:

أمـرى عـــجـيب فـى الأمـور بين الـتـــوارى والظـهـــور

مـــســـتـعـــمل عـنـد المغـيـ ـب ومـهـمل عند الحـضـور

وسبـب هذا الشعـر أن ملك تونس كان إذا أشكل عليـه شىء، أو ورد عليه لغز أو مُعَمَّى أو مترجم، بعث به إليه فيحله، وإذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتـفت إليه؛ ووجـد فى تعاليـقـه ما يشين دولة صـاحب تونس، فأمـر بضربه، فضرب حتى مات، وأحرقت كتبه - رحمه الله.

وكـان عِداَه يلقـبونه بـالفار، وحـصلت بينه وبين أبى الحـسن على بن شلبون المعافرى البلنسى مهاجاة، فقال فيه:

لا تعـــجـبـــوا لمضـرَّة نـالت جـمـيـ

ـع النـاس - صـــــــادرة عن الأبـار

أليـس فـــارا خـلقـــة وخليـــقـــة

والفـــار مـــجـــبـــول على الإضـــرار

فأجابه ابن الأبار:

قل لابـن شلبـــــون مـــقـــال تـنزه

غـيـــرى يجـاريك الـهـجـاء فـــجـار

«إنا اقـــتـــســـمنا خـطتـيـنا بينـنا

فـحـملت برة واحـتـملت فـجـار»(*)

قال قـاضى القضـاة ولى الدين بن خلدون فى تاريخـه الكبيـر الموسوم بديوان العـبر وكتـاب المبتـدأ والخبر فى تاريـخ العرب والعجم والـبربر ومن عاصرهم من ذوى لسلطان الأكبر ما نصه:

obeikandl.com